مراكب الليل

رواية

محمد العون

محمد العون: مراكب الليل (رواية)

الحضارة للنشر
7 شارع أبو السعود – الدقى 12311 – القاهرة

Al-Hadara Publishing
7 Abou El-Seoud Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Tel.: (20-2) 37 61 94 39
Mobile: (20-122) 316 48 67

E-mail: ask@alhadara.com
E-mail: hadara@idsc.net.eg
www.alhadara.com

الطبعة الثانية: مايو **2013**
الطبعة الأولى: يونيو **2012**
رقم الإيداع بدار الكتب **2012/11830**
ISBN 978-977-476-140-5

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مراكب الليل

1

البحر يبدو فى الظلام مخيفاً.. مرعباً، لا ضوء مطلقاً فى هذه المنطقة البرية المهجورة، صوت الهدير المزمجر والرياح القوية وهى تندفع بوحشية نحو اليابسة يخلع القلب، ويجعل من فكرة وضع القدم فى الماء فكرة مجنونة تؤدى للهلاك المحقق، لا توجد خلجان أو شواطئ مقوسة نصف دائرية تهدأ عندها الأمواج وتنكسر حدتها، لتداعب الرمال برفق وهى تدخل بين طرفى القوس اللذين يرسمان الشاطئ على الخريطة ويحددان مساحته، بل يصطدم البحر مباشرة بالأرض الممتدة كخط مستقيم بكل عنفوانه وبجبروت المياه العميقة، بما فيها من تيارات لا تكف عن التصارع حتى خط الصدام باليابسة، فى هذه المنطقة لا تسمح حركة البحر العنيفة بتكوين مساحة منبسطة من الرمال تمتد داخله لمسافة كتلك التى توجد فى الشواطئ، بالكاد مترين أو ثلاثة، ثم تجد المياه العميقة والأمواج العالية وتيار السحب الشديد الذى يُغيب الإنسان فى جوفه خلال ثوان قد لا يظهر له أثر بعدها.

على مبعدة عدة كيلومترات وعند سفح تل رملى، تتناثر عليه بقع عشبية خضراء باهتة وبعض النباتات الصحراوية المائلة للاصفرار، ترقد عدة بيوت واطئة لها طابع بدوى، مبنية بالطوب الأسمنتى وسقوفها من ألواح الصاج وعروق الخشب.

المطر يهطل بشدة، والهواء يأتى من البحر فى هذه المنطقة البرية بارداً كالصقيع، فى غرفة بأحد هذه البيوت التى لم تدخلها الكهرباء ولا الماء باطبع، يجلس جلال الغرباوى القرفصاء

ويغطى نفسه ببطانية متهرئة وحوله أربعة عشر شاباً يرتجفون من البرد، دفع عشرة آلاف جنيه ووقع أبوه شيكات وإيصالات أمانة بعشرة أخرى؛ ليصل إلى هذا المكان البائس الذى سيعبر منه البحر، خرج منذ أسبوعين من عزبة عبدالواحد مصمماً على الهجرة، المسافة بين الفقر والموت ليست كبيرة! إذا لم نعش هذه الحياة كما يجب أن تُعاش فلا داعى لها من الأصل والموت أفضل منها، نعم الموت أفضل من الحياة التى نعيشها!
منذ أن كان طفلاً وهو يسمع عن جمال عبد الواحد وسعد حسين عبد المعطى والحياة الرغدة التى يعيشانها فى أوروبا وما فعله كل منهما لأسرته، فى المرات القليلة التى زارا فيها البلدة رآهما من بعيد وحسدهما من كل قلبه وتمنى أن يصبح مثلهما عندما يكبر، سار فى التعليم حتى حصل على دبلوم التجارة ثم.. لا شىء، لم يجد أمامه سوى العدم، بين الحين والآخر يعمل لعدة أيام فى الحقول، ثم يجد نفسه بلا حول ولا قوة فى البيت لا يجد ما يفعله، أبوه نفسه عامل أجير لا يملك شيئاً، جده عاش طوال عمره فقيراً منذ ليلة هروبه وهو شاب بامرأته وعياله من بيته تاركاً خلفه أهله وعائلته، هذا الهروب الذى لم يعرف جلال أبداً السبب فيه، لكن جده فتحى كثيراً ما كان يذكر أن حياته تغيرت بعد تلك الليلة التى ترك فيها بيته وبهائمه والأرض التى كان يستأجرها بما فيها من زرع، دون أن يحدد إن كان هذا التغيير للأحسن أم للأسوأ!
لكن حتى فى أحلك الظروف هناك شعاع نور مهما كان بسيطاً قد يكفى لو سار الإنسان على هداه.

سافر خاله منذ سنوات قليلة إلى إيطاليا، يعمل فى أحد المطاعم التى يمتلكها جمال عبد الواحد، لم ينزل لزيارة مصر خلال هذه السنوات؛ لأنه لم يستطع الحصول على الإقامة حتى الآن، لكنه يرسل لهم خطابات بين الحين والآخر ويبعث لهم هدايا وبعض المبالغ المالية مع أبناء العزبة الذين يعملون فى روما.

****

بعد أذان الفجر بساعة جلس عبد الواحد على الدكة أمام بيته ليحلق ذقنه ويسوى شاربه، بينما شمس الصبح بالكاد تبعث أشعتها الواهنة لتضيء الحقول الممتدة حتى نهاية الأفق، لم يستطع النوم ظل يتقلب فى فراشه طوال الليل وأعصابه المشدودة لا تدع له فرصة ليغفو ولو للحظات، كان يشعر بامرأته وهى تحاول النوم دون جدوى، لكنه لم يكلمها أو يفتح معها باباً للحوار، ظلا كلاهما يمثل النوم الذى كانا بحاجة إليه فأمامهما فى الغد يوم طويل، كانا قد شبعا من الكلام البارحة ولم يعد هناك المزيد، أحاديث طويلة تتشعب إلى فروع لا نهاية لها ثم تعود لتصب فى المنبع الذى بدأت منه، وأولادهما يتقافزون حولهما وهم يشاركون بتعليقاتهم المرحة فى الكلام الكثير الذى يدور بين أبيهم وأمهم، ويتداخلون فيما يعنيهم ومالا يعنيهم، والدار تغص بالزوار من الأقارب والجيران، والجميع تشملهم حالة من البهجة فى إحدى لحظات الفرح التى لم يجد عليهم الزمن بمثلها منذ أجيال.

قفز عبد الواحد من فراشه بمجرد أن سمع أذان الفجر ينطلق من جامع القرية، وجد جميع الرجال قد توافدوا لأداء الصلاة كأنهم فى ليلة عيد.

بينما امرأته تعد له طعام الإفطار ألقى نظرة على أبنائه فاروق وعامر وصابر وملكة وأحلام وفتحية، وهم يغطون فى نوم عميق من أثر السهر والمجهود الذى بذلوه بالأمس، له الآن أن يطمئن عليهم وعلى المستقبل السعيد الذى ينتظرهم فى ظل الثورة المباركة ورجالها الذين حولوا مصر إلى جنة الله على الأرض، كما قال عبد المعطى جارهم الذى زارهم بالأمس مهنئاً، وقال كلاماً كثيراً لم يفهموا منه إلا القليل. أتت امرأته تحمل صينية الإفطار وهى تتمايل تحت تأثير الحمل، نظر عبد الواحد بسعادة إلى بطن زوجته وتفاءل بمولوده الجديد الذى جاء الخير فى ركابه، وقرر أن يسميه جمالاً لو ولد ذكراً.

قام إلى حجرته ليرتدى ملابسه، أخرجت امرأته جلباب المناسبات الذى يحضر به الأفراح ومأتم العزاء صيفاً وشتاءً وفردته على السرير، كان قد استحم بالصابونة بعد رجوعه من صلاة الفجر، كما يفعل أيام الجمع والأعياد، وارتدى طاقم ملابس داخلية نظيفاً.

لف عمامته البيضاء الجديدة بعناية وتأكد من هندامه، ثم خرج تسابقه قدماه على الطريق إلى خارج البلد حيث تنتظره هو ورفاقه من الفلاحين الأجراء الحافلة التى ستقلهم إلى المركز.

ألقى نظرة طويلة وهو يمشى على الأراضى الشاسعة التى تمثل زمام البلد، آلاف من الأفدنة تزرع بالفاكهة والمحاصيل، حقول القمح تم حصادها منذ أيام وظهرت الأرض الطينية السوداء وقد تناثرت عليها أكوام التبن وبقايا الحصاد بعد أن امتلأت المخازن بالحبوب، كان العمل يسير على ما يرام برغم ما حدث وجادت الأرض بمحصول وفير كعادتها، على مبعدة لاحت المساحات

الخضراء لحقول البرسيم والفول وخضروات الصيف، كاد عبد الواحد يقفز على الأرض مغتبطاً وهو يقترب من القطعة التى تضم الثلاثة أفدنة، أكمل طريقه كالحالم وود أن يجرى إلى أرضه ليشم رائحة ترابها وزرعها، كما فعل من قبل يوم التقسيم وتحديد المساحات لفلاحى قريته.

نشأ فى هذه الأرض وعمل منذ صغره فى جميع أنحائها، ويعرفها كما يعرف كف يده، ويحفظ تضاريسها وقنوات ريها وجسورها ومصارفها، بمجرد أن سمع من مسئول لجنة التوزيع بحدود أفدنته الثلاثة المقسمة إلى ثلاث قطع حتى جرى نحو القطعة الأكبر، لم يكن بحاجة لمن يقوده إليها، لم ينتظر رجال اللجنة الذين حضروا من مصر بملابسهم الرسمية ورتبهم العسكرية وبصحبتهم عساكر الجيش والبوليس حتى يمروا ويضعوا علامات الحدود على الأرض، بل ذهب جرياً لينتظرهم هناك فى أرضه والدموع تتساقط من عينيه.

وصل إلى الطريق الرئيسى المجاور للترعة, وبقيت أمامه مسافة بسيطة ليصل إلى مكان انتظار الحافلة، وجد عدة رجال من أبناء العزب المجاورة يسيرون على الطريق فانضم إليهم، كانوا جميعهم يرتدون ثياباً نظيفة وقد تهيأوا للمقابلة بأقصى ما يستطيعون، وبرغم ما كان يموج فى نفوسهم من فرح ساروا صامتين تنتابهم حالة من الهيبة لما هم مقبلون عليه، فقد وقع عليهم الاختيار لمقابلة الرئيس وتسلم حجة الأرض منه شخصياً.

****

هناك ما يزيد على السبعمائة رجل وشاب من أبناء القرية وعزبها يعملون فى إيطاليا وفرنسا، بالإضافة إلى عدد قليل

سافروا منذ سنوات قليلة إلى اليونان، التى فتح الطريق إليها أحد أبناء عائلة عبد الواحد أيضاً، فما إن استقر هناك حتى سافر إليه أصدقاؤه وزملاء طفولته وبعض أقاربه، من كثرة الحكايات التى تتناقلها الألسنة وتروى عن هذه الدول فى بلدتهم والتى سمع بعضها من أصحابها أنفسهم، أصبح يعرف الكثير عن المدن الأوروبية وأسماء أحيائها وميادينها، بل وبعض شوارعها ومحلاتها المشهورة أيضاً، وكذلك أساليب الحياة هناك وطرق المعاملة بين الناس بأكثر مما يعرف عن القاهرة والإسكندرية اللتين لم يزرهما مطلقاً، فى هذه الجلسات التى كانت تمتد لساعات متأخرة من الليل يقضونها على المقاهى أو عند الترعة بجوار الساقية القديمة، تعلم الكثير من الكلمات الإيطالية، حفظها وعرف معناها استعداداً لليوم الذى يحتاجها فيه، والأهم أنه عرف منهم الطريق إلى سماسرة السفر.

رحلة طويلة بدأها جلال من العزبة حتى وصل إلى هذا المكان، مر بالإسكندرية، بعدها قطع الطريق الساحلى حتى وصل إلى مرسى مطروح، ومنها إلى السلوم التى مكث بها عدة أيام مع مجموعة من الشبان القادمين من مختلف أقاليم القطر المصرى، ما يقرب من المائة شاب جاءوا من قرى ومدن الصعيد والدلتا ليتجمعوا عند آخر نقطة من خط الحدود لكى يخرجوا من بلدهم متسللين كأنهم هاربون من جرم ارتكبوه، هناك تسلمتهم عصابات المهربين من البدو، شحنوهم فى سيارات ميكروباص وعبروا بهم الحدود متوغلين فى الصحراء القاحلة، ساروا فى طرق جبلية وعرة ليومين متتابعين حتى وصلوا إلى المكان الذى

سيمكثون فيه لأسبوعين أو ثلاثة حتى يدبر لهم المهربون المراكب لعبور البحر.
برغم المبالغ الكبيرة التى دفعها كل منهم والشيكات التى وقع عليها الآباء والإخوة، فإن المعاملة كانت قاسية وتتسم بالغلظة وتصل إلى حد الإهانة، رجال عصابات التهريب فى حالة توتر دائم لا يقبلون معها أى نقاش بشأن ما يلقونه من أوامر، يرفعون مسدساتهم وأسلحتهم النارية مهددين بقتل من يعارضهم أو يتسبب فى أى مشكلة لهم، قالوا بعبارات صريحة إنه لا دية لأى مصرى يُقتل أو يموت فى هذا المكان، يتعاملون مع جمع الشبان كأنهم قطيع بشرى لا حق لهم فى أى مطلب، بعد أن وزعوهم على الغرف المغلقة النوافذ، أخبروهم أن فتح أى نافذة ممنوع تماماً وأن هذه البيوت لابد أن تبدو لأى عابر على الطريق مهجورة بلا سكان، وأن أى مظهر من مظاهر الحياة يُرى أو يدل على وجودهم فى هذه البيوت سيعرض الجميع بمن فيهم المهربون للقبض عليهم ودخولهم السجن، هاجس السجن والخوف من رجال الشرطة كان يمثل رعباً حقيقياً لرجال عصابة المهربين، ويدفعهم للعنف والعصبية للسيطرة على مائة شاب لابد أن يظلوا لأيام طويلة فى حالة سكون تام داخل البيوت البدائية المغلقة عليهم.

****

استغرقت الرحلة إلى المركز ما يقرب من الساعة، توقفت الحافلة بهم فى الثامنة صباحاً عند ساحة واسعة أقيم فيها سرادق كبير، غص المكان بالناس وعربات الشرطة العسكرية التى كان

أفرادها يقفون فى صفوف منتظمة بينما يشرف الضباط على تنظيم الدخول إلى السرادق وتوجيه سائقى السيارات التى تصل تباعاً إلى أماكن الانتظار، شخصيات مهمة من رجال الدولة ينزلون من الباب الخلفى، يؤدى الضباط والعساكر التحية لهم بقوة كان ينخلع لها قلب عبد الواحد ورفاقه، برغم الابتسامة التى تعلو الوجوه والسلام الحار والعناق المتبادل والفرحة التى تبدو أنها تغمر الجميع، كانت تسود الجو حالة من التوتر التى يسببها حضور الرئيس، فترة الانتظار التى تسبق قدومه الطاغى تهز الأعصاب، كل رجل يريد أن يظهر فى أحسن صورة، وأن يترك الانطباع الأفضل لديه.

قبع عبد الواحد ورفاقه على الكراسى التى أجلسوهم عليها، أخبرهم أحد الضباط أنه ممنوع القيام أو الحركة أو التدخين، من يسمع اسمه فى الميكروفون يتجه بالخطوة السريعة إلى المنصة ليسلم على السيد الرئيس باليمين ويمد الشمال ليتسلم الحُجة منه وبسرعة، وبعدين يرجع يقعد مكانه.

بعد أن استقر على كرسيه والتقط أنفاسه المبهورة أخذ يتطلع بفضول إلى ما يدور حوله، لم يكن يعرف إلا القليل عن الأحداث التى تلاحقت فى السنوات الأخيرة، فالأخبار تصلهم باهتة قد تناثرت أشلاؤها وضاعت ملامحها واختلطت بكم هائل من الأكاذيب والإشاعات، حتى إنه وجد صعوبة فى تصديق أن عزب قريته لم تعد ملك الخواجات، لوسيان وأنطون وميشيل، وأنهم رحلوا وغادروا مصر كلها بلا رجعة، القرية الصغيرة التى نشأ فيها هى كل عالمه، لم يخرج منها سوى مرات معدودة، حتى إنه زار المركز مرة واحدة من قبل وهذه رحلته

الثانية إليه، لكنه استغرب مع ذلك من هؤلاء الشبان الصغار الذين وجدهم يدخلون السرادق وسط الحفاوة، والجميع ينحنون لهم ويوسعون لهم الطريق إلى الصف الأمامى حيث يتخذون مجلسهم بكل عظمة، برغم ما يشعر به من الغبطة والامتنان فإنه أحس بالخوف، بشكل ما فهم أن مصيره بيد هؤلاء الشبان وهو ما جعله بالفطرة التى توارثها عبر أجيال عديدة يخشاهم ولا يطمئن إليهم، فعبر سنوات عمره التى لا يعرف بالضبط كم عددها ثلاث وأربعين، خمس وأربعين.. لا يدرى؟ شاهد قسوة أبناء السادة من الشبان إلا فيما ندر على أمثاله، تعلم من خبرة السنين أن الشبان عندما يملكون المال والسلطة فإنهم يصبحون قساة غلاظ القلوب، لا يقبلون أعذاراً ويحبون إصدار الأوامر كيفما اتفق، معتقدين أنهم بهذا يؤكدون رجولتهم وأحقيتهم فى التصرف، برغم أنهم فى معظم الأحيان لا يمتلكون الخبرة ولا يعرفون تحديداً كيف تدار الأمور، لكنهم يندفعون بحماس الشباب وطيشه ويخوضون فيما لا يعنيهم أو فيما لا يفهمونه، عادة ما يتعامل معهم الرجال الأكبر سناً كعبد الواحد وأمثاله من مزارعيهم بالصبر والحيلة، حتى يبت الكبار ومن بيدهم اتخاذ القرار فى الأمر، ويحسمون الموقف الذى غالباً ما ينتهى على خير طالما أن الكبار موجودون.

مر الوقت بطيئاً حتى بلغت الساعة العاشرة موعد حضور الرئيس، الذى وصل فى موعده تماماً، وما إن دخل السرادق حتى دوت الهتافات وعلا التصفيق وسادت الحماسة الجميع، ركز عبد الواحد ورفاقه وجميع من حضر من الفلاحين أعينهم

عليه، وتسمروا على كراسيهم عندما بدأ يتكلم وصوته يدوى عبر الميكروفون خطيباً.

لم يفهم عبد الواحد معظم مقاطع الخطبة خاصة تلك التى كان الرئيس يقرأها من الورق، لكنه استطاع أن يفهم ما كان يقوله عندما يترك الورق ويرفع رأسه ليتحدث معهم ببساطة آسرة، اطمأن إلى أنهم سيتسلمون الأرض فى نهاية الأمر.

استطاع عبد الواحد بصعوبة بالغة أن يتماسك وهو يقوم عن مقعده ويمشى إلى حيث يقف الرئيس، شاهد الذين صعدوا من قبله وهم يحاولون عبثاً تقبيل يده عندما يمدها ليصافحهم، كان يسحب يده بقوة ويربت على أكتافهم مبتسماً، لم يستطع معظمهم مغالبة دموعه وهو يتسلم حُجة الأرض، واستطاع البعض ممن يمتلكون الجرأة وضخامة الجسد أن يتقدموا خطوة ليعانقوه فيتلقاهم برحابة صدر ويضاحكهم.

عندما وجد عبد الواحد نفسه فى مواجهة الرئيس غلبه البكاء، ورغماً عنه أراد تقبيل يده، لم يجد الرئيس رجلاً مثل غيره من الرجال، من الصعب معرفة عمره، يبدو مهيباً، عظيماً، كبيراً برغم شبابه، إنه رجل بكل ما تمثله الكلمة، تستطيع أن تطمئن إليه وتثق به، وقف عبد الواحد بعد أن تسلم حُجة الأرض ودعا له بالبركة وطول العمر والصحة، فابتسم له الرئيس وشكره.

ستبقى هذه اللحظات فى ذاكرة عبد الواحد إلى آخر لحظة فى عمره، لن ينسى تفصيلة واحدة منها، سيظل ملمس كف الرئيس وقبضته القوية وهو يصافحه محفوظاً فى وعيه، وسيستغرق أياماً حتى يفيق من أثر مقابلته.

نزل عبد الواحد من المنصة منتشياً من فرط سعادته مطمئناً إلى الأيام القادمة، أيام الخير التى سيعيشها هو وأولاده، كأنه يرى بعينيه الرخاء وحلاوة العيش، وحمد الله على أن أولاده لن يعانوا بعد الآن الشقاء والفقر الذى عاناه هو وأبناء جيله.

انفض الاحتفال أخيراً ونهض رجال الصف الأول عن مقاعدهم وهم يتنفسون الصعداء، بعد أن انتهت مهمتهم بنجاح وقد أدوا ماعُهد إليهم كما ينبغى، استطاعوا أن يضربوا عصفورين بحجر واحد بمنتهى الكفاءة، كانوا قد قضوا أسابيع طويلة يدرسون ويخططون للقضاء على نفوذ وسلطة الإقطاعيين وأثرياء الملاك، وفى نفس الوقت يحصلون على تأييد وولاء صغار المُلاك والفلاحين الأجراء الذين يمثلون قطاعاً واسعاً من أبناء الشعب.

***

نظر عبد الواحد من نافذة الحافلة وهى تعود بهم إلى الفضاء الواسع الذى يمتد إلى نهاية الأفق كبساط أخضر، وقال فى نفسه والله مصر حلوة يا ولاد، راحت أيام الفقر والذل وأصبحت من المُلاك يا عبد الواحد، من كان يصدق! الخواجات خرجوا بدون كلمة، تركوا كل شىء، أراضيهم وبيوتهم ورحلوا مع أولادهم وبناتهم وحريمهم وهم يبكون على مصر وخيرها الذى حُرموا منه، ونعيم أيامها التى لن تعود، لا يستطيع أن ينسى كسرة الظهر من الشمس للشمس، من شروقها إلى غروبها، وهم منحنون على الفأس لا يرفعون ظهورهم، وعلى رأسهم الخولى بالخيزرانة يراقبهم بعين حادة وقلب بارد كأنهم ليسوا أقاربه وأهله.

الخواجة لوسيان ينزل من سرايته ليتمشى ويتابع سير العمل، الحزام الجلدى العريض يشد بنطلونه الكاكى الواسع، وعلى رأسه البرنيطة الكبيرة وفى يده الكرباج المنثنى، قبضة يده تمسك بطرف الكرباج المجدول، كان يهزه فى يده أو يضرب به على بنطلونه عندما يقترب منهم.

- اشتغل يا إبراهيم.

قال الخولى ليُسمع الخواجة وهو يسير متجهاً ناحيتهم ومن خلفه ناظر زراعته، كان عم إبراهيم رجلاً كبيراً فى السن، وبعد ساعتين أو ثلاثة يصيبه التعب، فيحرك يديه بالفأس ليخربش سطح التربة دون أن يضرب بها ليعزق الأرض، يرتاح بهذه الطريقة لعدة دقائق، قبل أن يعاود العزق بضربات قوية محكمة تعكس خبرة أربعين أو خمسين سنة من العمل.

التفت إبراهيم الخولى للخواجة لوسيان، وأشار بطرف خيزرانته ناحية عم إبراهيم.

- هذا الرجل لا يعمل كما يجب يا سعادة البيه.

أجاب لوسيان بعربيته المتكسرة.

- لا يهم يا ابراهيم.. اتركه، المهم أنه لا يرفع ظهره!

اعتبرها عبد الواحد ورفاقه من الشبان الذين تقل أعمارهم عن العشرين، نكتة من الخواجة فضحكوا، لكن الخولى زعق فيهم وسبهم، فكتموا الضحكة وتابعوا العزق.

نصف ساعة فقط هى كل ما ينالونه من راحة، بعد أذان الظهر يجلسون فى أماكنهم ليتغدوا، كل واحد منهم يحمل معه غداءه فى منديل، رغيف عيش وقطعة جبن أو بصلة أو قرطاس ملح وكمون، ثم يقومون إلى أقرب قناة رى أو إلى الترعة ليغتسلوا

بسرعة ويتوضئوا ليلحقوا صلاة الظهر قبل انقضاء النصف ساعة.

فى العزب القريبة التى يملكها وجهاء البلد والبكوات والباشوات الذين يعيش معظمهم فى مصر العاصمة أو فى المركز، لم تكن الأحوال أفضل، الشدة والقهر وانعدام الرحمة سمة المُلاك جميعهم، خواجات كانوا أو مصريين.

فى بداية عهد عبد الواحد بالعمل كانت اليومية قرش صاغ، ثم ارتفعت مع الأيام حتى وصلت إلى قرشين صاغ ونصف لا تكفى لأى شىء، عندما وصل إلى سن الرجولة أصبح يُعهد إليه بزراعة قطع من الأرض تبلغ فدانين أو ثلاثة يزرعها بالأمر غلة أو برسيماً أو قطناً أو أى محصول آخر حسبما يتراءى لهم، فى مقابل أن يحصل فى نهاية الحصاد على جزء يسير من المحصول، يورد للمخزن ثلاثين أو أربعين إردباً يأخذ منها إردباً واحداً لا غير، شهور طويلة من العمل يحصل منها فى النهاية على ما يكفى بالكاد لطعامه، العمل نهاراً فى الحقول وليلاً فى الرى، حيث لا يرتفع الماء فى الترع وقنوات الرى إلا فى الليل، ست أو سبع ساعات سهر عند بئر الساقية أو الطمبوشة، والدولاب يدور بواسطة رأس أو رأسين من الماشية، المواشى مطمع لقطاع الطرق ورجال الليل الذين يسكنون الجبل ويخرجون ليلاً ليسرقوا ما تطوله أيديهم، وهو ما يصنع مشكلة الحراسة، مما كان يستدعى مساعدة شبان العزبة ورجالها، يتجمعون بعد العشاء مباشرة ويتجهون إلى مكان الساقية البعيد عن البيوت فى آخر العزبة، وكل منهم يحمل سلاحاً ومنديل

طعام، وواحد منهم يُحضر معه بتعريفة شاى وسكر فى قرطاسين تكفيهم جميعاً طوال الليل.

***

كما يحدث فى أى سجن كان البدو يوزعون عليهم الطعام الشحيح والماء فى أوقات محددة، أرغفة خبز يابسة ومعلبات الأطعمة الجافة، التى بالكاد تسد الرمق وتبقيهم أحياء، حتى يصلوا إلى لحظة التخلص منهم والانتهاء من العملية برمتها فيضعوهم فى المراكب المتجه إلى شواطئ إيطاليا.

فى البداية قالوا أن مدة الحبس هذه أو التخزين كما يسمونها، ستستمر ليومين فقط حتى يتم الترتيب مع رجال البحر وتجهيز المراكب التى ستنتظرهم فى عرض البحر، لكن المدة أخذت تطول والأيام ظلت تمر ورجال البدو يزدادون عصبية ولا يكفون عن زجر الشبان المصريين واتهامهم بالنحس وشؤم الطالع الذى عطل المراكب السائرة وأخرها، لغتهم تبدو مفهومة برغم اللكنة البدوية الثقيلة وهم يوجهون كلامهم إلى الشبان المصريين، أما عندما يتحدثون مع بعضهم فإن لغتهم تتحول إلى رطانة سريعة مغلقة تماماً لا يُفهم منها شىء ولا حتى كلمة واحدة.

الأمل وحده يجعلهم يتحملون صعوبة الوضع القاسى الذى وجدوا أنفسهم فيه، الأيام القادمة التى سينتقلون فيها إلى حياة أخرى تمدهم بمعين من الصبر والقدرة على الصمود أمام ما يتعرضون له، يتململون فى داخلهم وفى بعض اللحظات يوشكون على الثورة والهياج ضد المهربين ومعاملتهم المهينة وطعامهم السيئ والمكان الخانق الذى يحبسونهم فيه، لكنهم يتراجعون خشية

ضياع الفرصة الوحيدة لهم لتغيير حياتهم ولخروجهم من الأزمات التى تحاصرهم وتُضيق عيشهم، لحظة انفعال واحدة قد تؤدى بكل المال والجهد الذى بذلوه حتى وصلوا إلى هذا المكان، الصبر.. لابد من الصبر حتى تنتهى هذه الأيام الصعبة على خير ويحصدوا فى النهاية ثمرة تعبهم.

***

دخول الليل فى هذا المكان كئيب يقبض القلب، من بعيد يصل صوت البحر بهديره الوحشى يصاحبه صفير الرياح الباردة وهى تدوى وتنفذ من شقوق السقف والنوافذ، لتلاعب لهب موقد فتائل الجاز تحت براد الشاى، ينظر جلال إلى الموقد الذى يحتل أحد أركان الغرفة ويتابع بعينيه البراد الموشك على الغليان، قام بجسده الفارع الضخم وتناول كوب الشاى الذى صبه أحد زملاء رحلته وعاد إلى مكانه ليجلس على الأرض مسنداً ظهره للجدار، لا يتوقف عن التفكير فى المال وحساب الأجر الذى سيجنيه، كما سمع من الذين سبقوه بالسفر وأسعدهم الحظ بالعمل فى أوروبا، ساعة العمل لا تقل عن ستة يورو، عشر ساعات فى اليوم تساوى ستين يورو، أى ما يعادل أربعمائة وخمسين جنيهاً فى اليوم الواحد، يعنى ما يزيد على الثلاثة عشر ألف جنيه فى الشهر، ستين فى ثلاثين تساوى.. تساوى ألف وثمانمائة يورو فى الشهر، من الممكن له أن يعمل لإثنتى عشرة ساعة بل ست عشرة فى اليوم ليزيد المبلغ.. لم لا؟ سيعيش بأقل قدر من النفقات، سيدفع لخاله أولاً المبلغ الذى ساعده به ثم يرسل لأبيه عشرة آلاف جنيه كل شهر، حتى يسدد باقى تكاليف السفر ويسترد الشيكات ثم يجدد البيت المتهالك الذى يعيشون فيه،

يشترى أثاثاً جديداً وأجهزة كهربائية وسيارة نصف نقل، ويجهز شقيقاته للزواج وهو مرفوع الرأس طالما جيبه عامر بالمال، يدفع مصاريف إخوته الصغار فى المدارس ليكملوا تعليمهم... بعد أن تستقر أحوالهم ويضمن أن أسرته تجاوزت حد الفقر، ساعتها يستطيع أن يرجع من السفر ليتزوج.. الزواج ما أصعبه هذه الأيام! الشبكة والمهر وحدهما لا تقلان عن عشرة آلاف جنيه، لا يوجد رجل فى العزبة يزوج ابنته بأقل من هذا المبلغ، عند الناس الأكثر ثراءً يزيد بزيادة مستوى العائلة حتى يصل إلى خمسين ألفاً، بعد ذلك يأتى الأثاث وتجهيز ما يلزم لفرش البيت، وقبل هذا وذاك الحصول على سكن بين بيوت العزبة التى ضاقت على أهلها، ولم يعد فيها موضع خال!!

2

تبدأ الساقية فى الدوران ويتدفق الماء من أفواهها ليصب فى القناة المتجهة إلى الحقل، ويتولى صاحب نوبة السقاية فتح الأحواض وتدوير الماء بها، بينما يجلس رفاقه قرب زوج الماشية فى مواجهة الترعة يتسامرون ويدخنون الجوزة ويشربون الشاى المصنوع على نار الحطب، السهر فى ليالى الرى أحد المتع القليلة التى ينعمون فيها بالصحبة فيعلو ضحكهم ويمرحون بعيداً عن غلاسة الخولى وناظر العزبة، يستريحون من شقاء النهار وشمسه الحارة، كل رجل منهم له نوبة رى تتتابع عليهم ويخرج إليها ومعه أصحابه ورفاقه، فلا يستطيع أعتى الرجال أن يخرج بمفرده فى الليل بالماشية.

فى الليالى التى يغيب فيها القمر يكون الليل حالكاً يزيده سواد الأرض ظلمة، يجمعون كومة كبيرة من الحطب، يضعونها فى حفرة ويشعلونها لإنارة المكان والإعلان عن وجودهم، السكون يحمل أخفت الأصوات إلى مسافات بعيدة، لم تكن تلك الليلة التى سمعوا فيها صوت أقدام تدب من بعيد مقتربة منهم ليلة مناوبة لعبد الواحد، كان يجلس مسترخياً ليريح جسده بعد أن عمر دماغه بالدخان والشاى، يسمع حديث أصحابه عن كرستين ابنة الخواجة التى جاءت من مصر بالأمس، وخرجت من السرايا لتتمشى فى حقول أبيها، ومرت أمامهم، وهم يعملون، ببشرتها البيضاء الناصعة وجسدها الملفوف وشعرها الأصفر وعينيها الملونتين.

- يا سلام يا ولاد لو أتزوجها ليوم واحد، يوم واحد بس بالعمر كله.

قال رضوان المعروف بشقاوته، فضحكوا برغم ما بدا على وجوههم من امتعاض.

- بنات الخواجات دمهم زفر ورائحة عَرقهم زنخة!

- ده قصر ديل يا أهبل أنت وهو.

رد رضوان ساخراً، لكنهم انهالوا عليه بالتريقة وتكلموا بلهجة العارف ببواطن الأمور عن حريم الخواجات، اللاتى لم يقترب واحد منهم من إحداهن، كانوا بالكاد يلمحونهن أحياناً من بعيد بين الحين والآخر.

قبل أن ينتهوا من الضحك، تناهى إلى أسماعهم صوت الأقدام وهى تدب من بعيد على الطريق، فانتفضوا واقفين وقد تنبهت حواسهم وسحب كل منهم سلاحه، هناك من يأتى بعصا غليظة، وهناك من يأتى بالمنجل المشرشر، وهناك من يأتى بسكين أو ببلطة كعبد الواحد.

تجمع الرجال فى نصف دائرة واستعدوا لمواجهة القادم كائناً من كان، وقفوا بأجسادهم القوية الصلبة التى شحذها العمل الشاق فى الحقول رغماً عن سوء التغذية.

لم يلبث أن تحدد مصدر الصوت بوضوح، هناك من يسير على الطريق المحاذى للترعة، تحركوا بضع خطوات ووقفوا على حافة الطريق ليجدوا على بعد أمتار عائلة صغيرة، رجل وامرأته ومعهما طفلان تحمل الأم أصغرهما، بينما يحمل الأب صرة كبيرة على كتفه يسندها بيد وبالأخرى يمسك كف ابنه الأكبر.

بادرهم الرجل بالسلام فردوا عليه وقد هدأت نفوسهم بابتعاد شبح المعركة، وضع الرجل الصرة عن كتفه عندما وصل إليهم وطلب شربة ماء، لكنهم وقد فهموا إلى حد ما سبب خروجه على تلك الحالة، أفسحوا له الطريق ودعوه للجلوس على الحصيرة، بجانب قلة الماء والطعام والحطب المشتعل الذى يُشعر الإنسان فى الليل بالونس والأمان، فدخل الرجل بلا تردد ومن خلفه زوجته الشابة والطفلان وجلسوا، وقد بدا عليهم أثر التعب والخوف الذى طاردهم لما يقرب من عشرة كيلومترات حتى وصلوا إلى هذا المكان.

لم يستطع واحد منهم وهم ينظرون إلى الرجل الشاب وهو يشرب ويسقى عائلته أن يمنع نفسه من هذا الشعور الغليظ بأنه قد يكون مكانه فى يوم ما، الطرد من العزبة خطر قائم وسيف مسلط على رقابهم جميعاً، مجرد كلمة ينطقها صاحب الأرض أو ناظر زراعته تكفى ليخرج فى نفس اليوم.

بعد أن التقط الضيف أنفاسه سألوه من أين أتى؟ وما السبب فى خروجه على تلك الحال ليلاً وأمامه النهار؟ فبرغم كل شىء لا يُطرد الناس هكذا وفى عز الليل إلا فى حالات شديدة الندرة، المعتاد أن يُسمح لهم بيوم يجمعون فيه أغراضهم ويجدون ركوبة تحملهم ثم يخرجون مبكراً فى صباح اليوم التالى.

- من عزبة عبدون.

قال الضيف مجيباً على السؤال الأول، فاشمأزت نفوسهم من السيرة، يعرفونه جميعاً، رجل من أصل وضيع، متجبر قاس، قلبه لا يعرف الرحمة، ورث عن أبيه بضعة أفدنة لكنه استطاع

بطرق لا يعلمها أحد أن يغتنى ويشترى أراضى حتى وصلت عزبته إلى ما يربو على مئتى فدان.
غلى الدم فى عروقهم من الغيظ، فعبدون هذا مهما بلغ ثراؤه هو فى النهاية فلاح مثلهم، من أين أتى بهذا الجبروت، نسى الله وعميت بصيرته إلى هذا الحد؟!
- ملعون أبوه... راجل خسيس.
قال عبد الواحد ثم بصق على شماله، سرت موجة من التعاطف مع الضيف وأخذ كل رجل منهم يواسيه ويشد من أزره قدر ما يستطيع، خاصة عندما أخبرهم عن خشيته أن يكون رجال عبدون خلفه، صاحوا به.
- لو تجرأ كلب منهم على الحضور إلى هنا سيكون آخر يوم فى عمره.
صنعوا لضيفهم الشاى ووضعوا أمامه هو وأسرته الطعام، ثم أخذوا يتشاورون فى أمره محاولين أن يبحثوا له عن عمل وسكن يأويه عندما يحل الصباح.
بعد أن هدأ واطمأن بدأ الضيف يحكى لهم عن عبدون وما يحدث فى عزبته، هذا رجل ظالم، ربنا ينتقم منه، لا يكفيه ما يفعله فى فلاحينه من ضرب وتعليق فى الفلكة لأى خطأ أو هفوة، لكن شره امتد إلى نسوان العزبة، عندما يلمح امرأة تعجبه يرسل أحد رجاله ليغرس عصا وفوقها طربوش أمام باب بيتها، فتذهب المرأة إلى بيته فى المساء لتقضى الليلة عنده، كنا نرى هذه الأفعال ونسكت خوفاً منه، حتى وضع العصا بالأمس أمام باب بيتى!!
- راجل ابن كلب.

كانت زوجة الضيف تدارى وجهها بطرحتها خجلاً وهى تسمع هذا الكلام، بينما تنساب دموعها فى صمت.
ولا يهمك، أنت الآن فى حمايتنا وربنا كريم، الخواجة راجل ابن كلب هو كمان، لكنه أرحم من عبدون وأمثاله من أولاد الحرام، بكرة نكلم الناظر ونشوف لك عزبة تشتغل فيها.
- اسمك إيه؟
سأل عبد الواحد الضيف.
- فتحى الغرباوى.

****

ما يقرب من مائة شاب ينتمون إلى الطبقة الدنيا ينتظرون بنفاد صبر انتهاء فترة التخزين ليبدءوا مغامرتهم مع الحياة، أكبرهم فى بداية الثلاثينيات من العمر وأصغرهم فى نحو الخامسة عشرة أو أقل، تضم المجموعة أكثر من عشرين صبياً تحت سن الثامنة عشرة، هؤلاء فرص حصولهم على الإقامة لو نجحوا فى عبور البحر سالمين أفضل من الذين يكبرونهم، كانوا قد اكتشفوا لتوهم أن القوانين فى إيطاليا تمنع ترحيل الأطفال فى حالة القبض عليهم، بل ترسلهم إلى إحدى دور رعاية الأحداث حيث يقيمون إقامة كاملة بالمجان، بالإضافة إلى أن الدار تقوم بتعليمهم فى المدرسة الخاصة بها حتى سن الثامنة عشرة، بعدها يتخرجون من المدرسة وقد حصلوا على أوراق الإقامة الشرعية التى تعطيهم الحق فى العيش بحرية داخل البلد وبشكل قانونى بعيداً عن مطاردة الشرطة وتكفل لهم -وهذا أهم ما فى الأمر- الحق فى الحصول على عمل براتب كامل كأى مواطن فى الدولة، بما يعنى أن طاقة القدر ستفتح لمن يستطيع الوصول إلى

الأراضى الإيطالية وهو دون الثامنة عشرة، كان لهذا الاكتشاف وقع مذهل على أهالى القرى والعزب والنجوع التى عرف أبناؤها طريق الهجرة إلى أوروبا، وفى الحال بدأ الأطفال فيما بعد الثانية عشرة بالاندفاع نحو البحر فرحين مهللين، كل منهم يحفظ كلمة واحدة بالإيطالية، بامبينو.. لقنوها له ليرددها لرجال الشرطة عند القبض عليه، بامبينو الكلمة التى ستفتح له باب النجاة وتعطيه حق اللجوء والحياة فى أوروبا مدى العمر!

هناك الجامعيون، خمسة أو ستة شبان، جاهدوا حتى وصلوا إلى نهاية المرحلة الجامعية، حصلوا على درجات البكالوريوس والليسانس ثم لم يجدوا وظيفة أو مجالاً للرزق سوى العمل فى الحرف اليدوية كعمال باليومية، هؤلاء كانوا أكثر الجميع سخطاً، ودائماً ما يثيرون غضب المهربين باعتراضهم على سوء المعاملة ورفضهم لتلقى الأوامر التى يرون أنها مجحفة لحقهم، هشام القادم من قرية فى قلب الدلتا والحاصل على بكالوريوس علوم قسم جيولوجيا متمرد بطبعه ويرفض الاستكانة، يرى أن المال الذى دفعه للمهربين، هذه الآلاف التى جمعها بشق النفس لابد أن تكفل له معاملة كريمة، فهو لا يسافر صدقة أو إحساناً من أحد، كان رجال البدو ينظرون له بغيظ وعيونهم تطق شراراً عندما يجادلهم معترضاً، ثم يشيحون بوجوههم ويديرون ظهورهم له دون أن يردوا عليه، كأنهم يتعمدون إظهار احتقارهم له، لكن فى إحدى المرات قال له رجل منهم.

- تستطيع أن تأخذ فلوسك وترجع من هنا على بلدك، ترجع ماشى على رجلك، الساعة نجيب لك الفلوس وتطلع.. الباب يفوت جمل!

سكت هشام ولم يرد، بينما صمت زملاؤه وقد تشفى أغلبهم فيه، كانوا يرون أنه مزعج، كثير الكلام، مثير للمشاكل بلا داع، وينغص عليهم رحلتهم التى يريدون لها أن تسير على خير، كل منهم لديه من الهموم ما يكفيه، يدركون أنهم مقبلون على مغامرة صعبة غير مضمونة العواقب، يواجهون فيها خطر الموت وقد يفقدون حياتهم تلك التى يسعون لتغييرها إلى الأفضل، وقد يتعرضون للقبض عليهم والسجن وضياع المال الذى دفعوه ومازالت أسرهم مدينة بجزء كبير منه للسماسرة، الهم الأكبر الذى يشغل بالهم هو الفشل والعودة إلى أهليهم خالى الوفاض مثقلين بالديون، العودة إلى حياتهم الراكدة التى ستبقيهم فى القاع بلا أمل، الموت أفضل فى نظرهم من الرجوع إلى تلك الحياة الميتة! القلق والتوتر ينهش صدورهم، والأفكار تدور فى رءوسهم وتعصف بها بلا هوادة، المصير.. كيف سيكون؟ هل تنتهى الحياة خلال الأيام القادمة؟ هذه الأجساد الشابة من منها سيصبح جثة منتفخة يأكلها السمك؟ جثة متهرئة تتحلل بقاياها ببطء فى قاع البحر، بعد شهر من الآن أين سيكون كل واحد منهم؟ إلى أين ستنتهى بهم هذه الرحلة؟ هل سيترفق البحر بحالهم ويسمح لهم أن يعبروه بأمان إلى الشاطئ الآخر، هل ستتوحد مصائرهم أم تتفرق؟ تصل بهم المركب سالمين جميعاً.. أم ينجو البعض ويغرق آخرون ويُقبض على الباقين ليودعوا فى السجن قبل أن يُرحلوا عائدين عودة الندامة؟!

****

تذكر عبد الواحد بأسف وهو يخرج من الوحدة الصحية حاملاً ابنه الرضيع جمال أولاده الثلاثة الذين ماتوا وهم صغار فى مثل عمر جمال، لم يجد لهم علاجاً عندما أصيبوا بالحمى وارتفعت حرارتهم ولم تُجد الوصفات العلاجية المتوارثة معهم برغم أنها نجحت مع أشقائهم الستة، أما مسألة عرضهم على طبيب فكانت ضرباً من المستحيل، مع أن معظم الأطباء فى ذلك الوقت كانوا يمتازون بالرحمة والإنسانية ويراعون حالة الفقراء من مرضاهم، لكن المشكلة كانت فى تكاليف السفر إلى المركز أو المدينة القريبة حيث يوجد الأطباء، فلم يحدث فى تلك الأيام أن كان فى استطاعة عبد الواحد أن يجد فى جيبه أو فى بيته مالاً للسفر إلى الطبيب ناهيك عن أجرة الكشف وثمن الدواء.

لكن جمال الذى جاء فى زمن الخير وجد فى الوحدة الصحية طبيباً يعالجه ويكتب له أدوية ثمنها متوفر لدى والده، وسيجد بعد أن يكبر قليلاً مدرسة يتعلم فيها ومياهاً نظيفة يشربها، وسيجد نور الكهرباء يضىء البيوت ولن يعرف قسوة ظلام الريف وليله الطويل وهو يكبر وينشأ فى عالم غير الذى عرفه أبوه وأجداده.

اجتهد عبد الواحد فى عمله بمساعدة ولديه الأكبرين، فاروق وعامر اللذين امتهنا الفلاحة كأبيهما واكتفيا بما تعلماه فى الكُتاب، بعكس شقيقهما الأصغر صابر الذى التحق بالمدرسة واستمر فى التعليم.

أقامت الدولة نظام الدورة الزراعية الذى يحدد المحاصيل المزروعة وفق جدول، تحدد مساحة كل محصول حسب الحاجة، ويقوم المُلاك الجدد بالعمل فى إنتاج ما ترغبه الدولة التى حلت محل الإقطاعيين القدامى فى إدارة شئون الزراعة

بنظام أكثر عدلاً فى التعامل مع الفلاحين، يحصلون على التقاوى والأسمدة والمبيدات من الجمعية بالأجل، ثم يبيعون للجمعية محاصيلهم بالسعر الذى تحدده الدولة.

فى السادسة صباحاً يتهيأ عبد الواحد للخروج إلى الأرض، بعد أن يكون قد تناول إفطاره مع أولاده وجلس بجوار الباب ليشرب الشاى ويدخن الجوزة، ينادى على فاروق وعامر ليسحبا البقرتين والحمار من الزريبة ليخرجوا ثلاثتهم ومعهم صابر الذى يسير برفقتهم لمسافة قصيرة ثم يتجه إلى المدرسة الابتدائية، وأبوه يتابعه سعيداً به وبزيه المدرسى النظيف الذى يبدو فيه كأبناء الوجهاء، صحيح يا ولاد.. الناس تساوت بفضل الثورة وبفضل الرئيس الله يبارك له، بكرة صابر ياخد الشهادة ويبقى له مستقبل كبير، طبعاً يبقى راجل أفندى.. موظف محترم، وله مكانته فى البلد.

فى طريقهم الذى يمر بين الحقول كانت مساحة كبيرة قد تم تبويرها لإنشاء مصنع عليها، تنازعت عبد الواحد خواطره بين الأرض التى ضاعت وامتزج ترابها بالأسمنت ليفقدها خصوبتها إلى الأبد، وبين فرحته بالمصنع الذى حسب ما سمع سيحقق لهم الرخاء ويخلق لأولادهم فرصاً كريمة للعمل..، لكنه لم يلبث أن قال فى نفسه، لابد أنهم أدرى بالمصلحة من رجل بطاقية وعمامة مثلى، بس الأرض برضه خسارة.. مش كانت تتزرع أحسن ويعملوا المصنع فى الصحراء الواسعة، كان يحدث نفسه وهو يمشى صامتاً مع أفكاره بينما ينظر ولداه بغبطة إلى أعمال الحفر والإنشاء، كانا فرحين بحركة البناء والتشييد فى قريتهم.. الوحدة الصحية، المدرسة، الجمعية الزراعية، المصنع الجديد،

ويرى كل منهما بعين الإعجاب أن العمران الدائر حولهم سيجعلهم مثل أولاد البندر الأفندية، كانا مفعمين بالأمل بعد أن امتلك أبوهما أرضاً وكذلك البيت الذى يسكنون فيه وتحسنت أحوالهم المالية ولم تعد القروش تغادر جيوبهم، مازال فاروق يتذكر أن الحصول على قرش صاغ كامل كان أعز أمانيه وهو طفل وهى أمنية لم تتحقق أبداً..

لم تخطر الأرض فى بالهما، كان حلم المصنع والعمران والمدينة أكبر من أن يلفت نظرهما إلى الأرض، فالحقول لا يحدها البصر، والأرض أمامهما أوسع من أن تُنقصها بضعة مبان.

على غير توقع ظهر أمامهما ناظر زراعتهم القديم راكباً حماره، كان الرجل مازال محتفظاً بغطرسته وتعاليه برغم فقده لنفوذه وسلطته تماماً، عرف أهل العزبة أنه استطاع أن يشترى لنفسه عشرة أفدنة خارج زمام العزبة من عمله مع الخواجة مما جعله يحفظ ماء وجهه أمام فلاحى العزبة والقرية كلها الذين كان يتحكم فى أرزاقهم ويشخط فيهم آمراً فلا يملكون إلا الطاعة.

نزل عبد الواحد عن حماره وتنحى هو وأولاده على جانب الطريق، فعلى الرغم من كل ما جرى مازال الاحترام واجباً، ولم يكن من السهل نسيان مكانة الناظر وسطوته الغابرة، حتى إنهم شعروا بالخجل عندما تجرأ رضوان منذ أسابيع ورفع صوته عليه قائلاً أن الخواجة راح وراحت أيامه وأنت أصبحت لا تزيد عن أى رجل فينا، يومها وجم الناظر ولم يرد وترك رضوان وانصرف، ومع أن أهالى العزبة وبخوا رضوان على

هذه الفعلة وذهبوا خلف الناظر وطيبوا خاطره إلا أن هيبة الرجل كانت قد انكسرت.

أما إبراهيم الخولى الذى خرج من المولد بلا أرض ولكن ببضعة جنيهات اشترى بها دكاناً للبقالة والخردوات، فقد أصبح ملطشة أهل العزبة وخاصة شبانها الذين قاسوا منه أيام مجده الغابر، تخلى عنه الحظ دفعة واحدة وبارت تجارته لعدم خبرته بشئون البيع والشراء، فباع الدكان بالبخس وافتقر حتى استحق الإحسان وأصبح أهل عزبته أصحاب الأرض الجدد يعطفون عليه بيوميات الشغل، فينزل ليعمل فى حقولهم برغم تقدمه فى السن ويساعدهم فى بعض الأشغال دون أن يكونوا فى حاجة فعلية إلى عمله.

تقدم عبد الواحد فسلم على الناظر وهو على حماره وصبح عليه، فصافحه الناظر بود وحياه، كان خبر مقابلة عبد الواحد للرئيس ومصافحته له قد ذاعت وانتشرت فى جميع أرجاء الناحية مما أكسبه مكانة بين الناس كبيرهم وصغيرهم، وبدا كأنه امتلك نفوذاً ما يستمد تأثيره من شخصية الرئيس نفسه.

لم يجسر الناظر أن يخاطب عبد الواحد كما كان يفعل قديماً، إزيك يا واد يا عبد الواحد، الصفة التى كان يطلقها وينادى بها على أى رجل من الفلاحين مهما كبر سنه، بل رد عليه ببشاشة تعلمها من ضربة القدر التى نزلت فوق رأسه وأطاحت به من عرش النظارة.

- يسعد صباحك يا عبد الواحد.

3

أخذ فرج كوب الشاى وأمسكه بكلتا يديه ليتدفأ به وهو يسير إلى المكان الشاغر بجوار جلال، جلس وأشعل سيجارة ونفث دخانها ضجراً، هو أكثر الجميع قلقاً وخوفاً، فهذه محاولته الثانية لعبور البحر إلى إيطاليا، برغم حصوله على الشهادة الابتدائية فإنه لا يعرف القراءة والكتابة، ست سنوات قضاها فى التعليم خرج منها صفر اليدين ليشتغل عاملاً زراعياً.

أفسح له جلال ليجلس، ولم يكن حتى تلك اللحظة قد تحدث معه عن رحلته الأولى وتفاصيلها، كان جميع من فى الرحلة يتشاءمون من فرج ويتحاشونه خوفاً من النحس وسوء الطالع الذى دمغوه به بمجرد معرفتهم أن رحلته السابقة انتهت بالقبض عليه ودخوله السجن، كانوا مثل معظم الريفيين البسطاء يعتقدون فى الطالع ويخافون من النحس وأصحابه، لم يكن جلال يختلف عن أى فرد من رفقاء الرحلة فى نظرته لفرج كإنسان منحوس يعدى من يعرفه أو يصاحبه بسوء الحظ، لذلك كان يبتعد عنه قدر ما يستطيع ويتجنبه تجنب السليم للأجرب، لكنه لم يستطع وهو يراه يقترب وكوب الشاى فى يده نحو المكان الخالى بجواره إلا أن يفسح له ليجلس، برغم ثرثرة الشبان الآتية من الغرف المجاورة وحركة زملائهما فى الغرفة، كان دخول الليل وهو يحل بظلامه مع صوت الرياح الباردة وهى تصفر عبر ألواح السقف وتحمل معها صوت هدير البحر من بعيد مُوحشاً مُقبضاً للنفس، يُزيده ضوء لمبة الجاز الصغيرة المعلقة على الحائط وحشة لم يكن يخفف أثرها إلا تبادل الأحاديث والكلام

الذى يُعد وسيلة التسلية الوحيدة خلال ساعات الليل الكئيبة فى هذا المكان المقطوع عن العالم، وهو ما فتح باب الحوار بعد فترة صمت ودون تعمد من أحدهما، تغاضى جلال عن نظرته إلى فرج وتغلب على خوفه من النحس عندما وصل بهما الكلام إلى محاولته السابقة للسفر، وهو الموضوع الذى لم يكن أى أحد من رفقاء الرحلة يطيق أن يشير إليه فرج مجرد إشارة، وينهرونه إذا نسى وفلت لسانه أمامهم ليبتعد عن تلك السيرة التى تجلب النحس.

أحلى أيام عمرى قضيتها فى السجن فى إيطاليا، أنظف أكل أكلته فى حياتى، وأحسن نومة نمتها، كل شىء فى منتهى النظافة، حتى المعاملة من الشرطة وضباط البوليس بمنتهى الأدب والاحترام، لا ضرب ولا إهانة ولا شتيمة، فى الأول قضيت شهرين فى جزيرة لامبيتوسا فى معسكر على البحر كأنى كنت فى إجازة أو فسحة واكل نايم شارب وكمان لابس من هدوم معونات اللاجئين، حتى الألبسة والفانلات الداخلية كانوا يوزعونها علينا... بعد ذلك نقلونا بالمراكب إلى جزيرة أخرى فيها سجن حقيقى له أسوار وبه زنازين، لكنه كان فى منتهى النظافة والأكل من أحسن ما يمكن.

فوجئ جلال بحديث فرج، كان يعتقد أن التعرض للسجن يعنى الإهانة والضرب والبهدلة كما هو متعارف عليه فى المُخيلة المصرية عن السجون، وهو ما فتح شهيته للاستماع فسأل فرج متناسياً كل المحاذير.

- لكن كيف تم القبض عليكم؟

- قوات الشرطة أو الجيش الطليانى لا أعرف، هاجمت المركب التى كنا عليها فى عرض البحر قبل أن نصل الشواطئ الإيطالية بقليل، أخرجونا من المخزن الموجود فى قاع المركب إلى السطح ثم فتشوا كل المكان وقبضوا على ريس المركب والبحارة ووضعوا الكلابشات فى أيديهم، ثم سحبونا إلى جزيرة لامبيتوسا.

- ربنا يستر.

- كنا قد تخلصنا من جوازات السفر ورميناها فى البحر قبل أن نصعد إلى المركب حسب تعليمات المهربين، وهذه كانت مشكلة السلطات الإيطالية معنا، أنا قلت لهم أنى فلسطينى من غزة اسمى عدنان خليل وهارب من سوء معاملة الإسرائيليين وطالب اللجوء السياسى، طبعاً هذا الكلام لم يكن من دماغى لكن المهربين قالوا لنا ونحن على المركب إن هذه أفضل طريقة للحصول على الإقامة لأن الإيطاليين يتعاطفون مع اللاجئين الفلسطينيين ويسهلون لهم دخول بلدهم، ظلوا لعدة أسابيع يستجوبوننا ويحققون معنا فى جزيرة لامبيتوسا، كان هناك طلاينة يتكلمون عربى، وعرب من جنسيات مختلفة يأتون ويتكلمون معنا منهم ناس من السفارة المصرية، كل المصريين المقبوض عليهم لم يعترفوا بأنهم من مصر، منهم من قال إنه من العراق وهارب من الحرب هناك، هذه الحيلة كانت فيما مضى تخيل على الطلاينة ويصدقونها كما عرفت من الناس هناك، لكنهم عرفوا بعد ذلك أن المصريين يخدعونهم ويحصلون على حق اللجوء بهذه الطريقة، لذلك تشددوا معنا وعرفوا بأساليبهم الخاصة جنسيات جميع المهاجرين غير الشرعيين، الأفارقة أيضاً كانوا يكذبون ويدعون إنهم من البلاد التى بها حروب

أهلية ومجاعات حتى تمنحهم السلطات الإقامة وتسمح لهم بدخول البلد، الحقيقة إن موضوع المهاجرين مشكلة كبيرة بالنسبة لهم، عرفت وأنا فى الجزيرة أن عدد الأهالى فى حدود خمسة آلاف لكن عدد المحبوسين عليها أكثر من عشرين ألف.

- يااه.. عشرين ألف واحد إتمسكوا ومقبوض عليهم، ربنا يرحمنا وينجينا من المهالك.

- ده كمان غير المحكوم عليهم فى السجون الإيطالية، حسب ما عرفت.. أكثر من مائة ألف مصرى.

قال جلال وهو يضع كفيه على رأسه.

- يا خبر أسود؟!

ثم قال فى نفسه وقد امتعض من فرج وكلامه المشئوم، يخرب بيت فقرك، لكن فرج أكمل دون أن يلحظ شيئاً.

- لو لنا نصيب ورزق هناك سنصل فى أمان إن شاء الله، إذا كان السجن عندهم بهذا الشكل فكيف تكون الحياة والشغل فى بلادهم؟ العملية تستحق المخاطرة، ده إحنا مش عايشين.

- لو وصلت هذه المرة، أين ستذهب؟

- نفس طريقى فى المرة السابقة، لى أقارب ومعارف من البلد يعيشون فى نابولى، سوف أركب القطار إليهم من أى بلد أو مدينة نصل إليها، سافروا منذ سنوات عن طريق البحر ووصلوا وربنا كرمهم آخر كرم، علشان كده عندى أمل إننا نعدى البحر هذه المرة، وأروح أعيش وأشتغل معهم فى البلاد النظيفة الحلوة، وأبقى بنى آدم زيهم.

- ياريت.

***

عندما وصل فاروق إلى سن العشرين أخذ عبد الواحد يستعد لتزويجه، الدار التى يسكنونها ضيقة وتسعهم بالكاد، صحيح أنها أصبحت ملكاً لهم لكن لم يكن هناك مساحة تكفى لبناء غرفة أخرى ليسكنها فاروق وعروسه، لم يكن عبد الواحد يريد لابنه الأكبر الذى يعتمد عليه فى فلاحة الأرض ورعاية رءوس الماشية التى كثر عددها لديهم حتى ملأت الزريبة أن يسكن بعيداً عنه، وبدا أنه لابد من البحث عن بيت لفاروق خارج بيوت العزبة، التى بُنيت فى أيام الخواجة متلاصقة وبينها حارات ضيقة لا تكاد الشمس تنفذ خلالها على قطعة أرض مستطيلة محصورة من جميع جهاتها، ولا توجد حولها أو قريباً منها مساحات يمكن تأجيرها أو حتى شراؤها.

احتار عبد الواحد فى هذه المشكلة التى جدت عليهم ولم يعهدوها من قبل، فقد كان المالك أو ناظر عزبته يتصرفان فى مثل هذه الأمور، وهما اللذان يتخذان القرار، قد ينتقل الابن إلى عزبة مجاورة تتبع المالك أو إلى عزبة أخرى قريبة أو بعيدة إذا لم يكن المالك فى حاجة إليه فيعمل لدى مالك آخر، لكن فى جميع الأحوال لم يكن لأحد من الفلاحين الأجراء رأى ولا مقدرة على التصرف بمفرده فى هذه الأمور إلا فى أضيق الحدود، فهو نفسه انتقل من عزبة مجاورة عندما تزوج، ترك أبويه وإخوته وجاء بعروسه ليستقر ويعمل فى هذه العزبة بأمر من ناظر الزراعة.

كالعادة امتدت حيرة عبد الواحد فشملت أهل بيته وجيرانه فى العزبة ثم العزب المجاورة فالقرية كلها، وأصبح زواج فاروق وسكنه هو حديث الساعة الذى يشغل بال الجميع، يتسامرون حوله فى جلسات الليل التى يجتمع فيها الرجال حول الشاى

والجوزة تحت شجرة التوت العملاقة التى تقع على حافة الحقول المواجهة لبيوت العزبة، فلا يوجد فى العزبة مقهى أو دكان، وعادة ما يشترى أهلها حاجاتهم من الأسواق الأسبوعية، فى أربعة أيام من الأسبوع، يُنصب السوق فى ساحة بلدة ما فى زمام القرية التى تتبعها العزبة بنظام قديم العهد راسخ لا يتغير، يباع فيه كل ما يحتاجه البيت، إبر الخياطة والأقمشة والملابس والفؤوس والمناجل والمقاطف وأنواع الخضراوات والفاكهة والبيض والدجاج والبط والإوز، إلى الحمير والبقر والجاموس.

امتد الحديث إلى ليالى الرى التى ازدادت بهجة وحلا فيها السهر، بعد أن جهزوا المكان المجاور للساقية الذى لم يكن سوى مساحة مفتوحة من الأرض يضعون فى منتصفها حصيرة متهرئة لا غير، بنوا حوله سوراً من الطين بارتفاع نصف متر ووضعوا فى الداخل حصراً جديدة وشلتاً ليجلسوا عليها، وأصبح الطعام يأتى من البيوت فى صوان تحوى أنواع الجبن وأطباق الفول والبيض والخضروات وأرغفة الخبز، ولأول مرة تظهر علب السجائر فى الأيدى بعد أجيال لم تعرف سوى الجوزة والدخان اللف.

وعلى الرغم من انقطاع خطر اللصوص وقطاع الطرق الذين صنعهم الفقر والظلم وشدة الحاجة، ذابوا من تلقاء أنفسهم بعد زوال أسباب وجودهم، بالإضافة إلى أن قبضة الحكومة الشابة بطشت بهم وطاردت بقاياهم بلا هوادة حتى عم الأمن أرجاء الناحية، وتراجعت السرقات إلى حد بعيد، وبدا أن زمن قطع الطريق قد انتهى بلا رجعة، لكن أهالى العزبة مع ذلك ظلوا على عادتهم فى الخروج للرى ليلاً ومساعدة بعضهم البعض فى

توجيه مسار الماء لرى أراضيهم، بعد أن أصبح يجرى لصالحهم ويروى زرعهم ومحاصيلهم المتداخلة فيما بينها داخل الأحواض، بحيث أصبح من المستحيل أن يستقل كل منهم بحقله أو يحيطه بسياج، الحوض الواحد يضم عدة ملكيات ويسقى من قناة واحدة ويزرع جميعه بنفس المحصول، وهو ما جعل التعاون إجبارياً بينهم.

كان الرجل يسهر بجوار الساقية مع رفاقه يتكلم ويضحك وعيناه على حقله، يتابع جريان الماء خوفاً من كسره وتسربه إلى زرعه مما يعرضه للغرق إذا شرب زيادة عن الحد، خاصة مكاسر الخضروات، والمكسر عبارة عن قطعة صغيرة مستطيلة من الأرض، يخفونها بمهارة فى عمق الحوض عن أعين رجال الحكومة بين المحصول الرئيسى المحدد حسب الدورة الزراعية، تزرع المكاسر بجميع أنواع الخضروات لأكل البيت أولاً، ثم يباع منها بعد ذلك ما يزيد عن حاجة البيت.

فى إحدى تلك السهرات قال عبد المعطى وهو أيضاً يعانى نفس المشكلة إلى حد ما، إذ أن حسين ابنه الأكبر قد تزوج منذ عام، أنجب خلاله سعداً أول أحفاد عبد المعطى، ومازال يعيش هو وزوجته وابنه فى بيته الضيق.

- لقد أصبحت الأرض ملكنا الآن فلماذا لا نبنى عليها بيوتنا؟ إن هذا من حقنا، أليس كذلك؟

وقع كلام عبد المعطى على الناس وقع الصاعقة التى أدارت رءوسهم، ليس فقط لغرابة ما قاله وبعده عن تفكيرهم، وإنما لمكانة عبد المعطى بينهم واحترامهم له بسبب أنه الوحيد بينهم الذى يقرأ ويكتب، ويحفظ القرآن.

فى طفولته كان أنبغ طفل فى الكُتاب، سريع الفهم والحفظ، وبالرغم من أنه لم يتمكن من الذهاب إلى المدارس بسبب الفقر وبُعد المدرسة عن العزبة بأكثر من عشرة كيلومترات، لكنه استطاع أن ينتهى من الدراسة فى الكُتاب وهو يجيد القراءة والكتابة ويحفظ عدة أجزاء من القرآن، وهو الأمر الذى ظل يميزه عن بقية أقرانه وعن أهل القرية كلهم الذين لم يخلعوا عباءتى الجهل والفقر لأجيال عديدة.

لسنوات طويلة لم يستطع عبد المعطى أن يروى نهمه للقراءة إلا بمشقة بالغة، كان يتلقف جريدة قديمة مضى على صدورها عدة أسابيع تصله مصادفة كأنها هبة من السماء ويقرأها حرفاً حرفاً، حتى الإعلانات المصورة التى تُعلن عن بضائع وسلع غريبة لم يرها فى حياته، يطلع على ما يحدث فى العالم وما يوجد فى مصر من عجائب يصعب على عقول أهل العزبة الذين لم يستمعوا إلى الراديو فى حياتهم ولكنهم سمعوا عنه أن يصدقوها، كان ينتهز أى فرصة ليذهب إلى السوق ليس بغرض الشراء ولكن ليجمع قدر ما يستطيع ورق الجرائد والمجلات الذى يستخدمه الباعة قراطيس، يرجع فى النهاية بكومة متباينة التواريخ والقطع ويبدأ فى قراءتها، أجزاء من مقالات وشذرات من أخبار، يستطيع عقله بذكاء فطرى أن يرتبها ويصل ما بينها من فجوات.

ظلت حكاية رجوع بيرم الشاعر المشهور الذى تغنى له أم كلثوم إلى مصر، تستوقفه ولا تبرح ذاكراته منذ أن قرأها، كانت المجلات قد أسهبت فى الكتابة عنه بعد أن انتهت مدة نفيه التى طالت لسنوات قضى معظمها فى فرنسا، بسبب سبه للملك

وبالاسم الصريح فى عدة قصائد وهجائه العنيف له، والذى وصل إلى حد الطعن فى عرضه، مما أسخط الملك عليه وأراد الانتقام منه بالقتل، لولا أن رجاله أقنعوه بأن عقوبة النفى من مصر أقسى وأذل للنفس من القتل، فالخروج منها أصعب من الموت فيها، فاقتنع الملك الذى ذاق هو نفسه مرارة النفى فى طفولته وعرف مدى قسوة الطرد منها وأنه بالفعل أصعب من الموت وأقسى عقاباً ينزل بإنسان، فأصدر أمره بنفى الشاعر نفياً مؤبداً، وأقسم أنه لن يدخلها مادام هو على قيد الحياة.

عندما وصل بيرم إلى بورسعيد بعد أن توقفت به المركب القادمة من الشام فى طريقها إلى مرسيليا، وكان الملك قد توفى منذ فترة، صعد إلى السطح وشم هواء مصر التى غاب عنها سنين، ونظر إلى أنوار بورسعيد ومبانيها وهى تطل عليه من بعيد، فسالت دموعه وبكى وهو يتذكر وطنه الذى حُرم من خيره ولم يجد فى دول العالم التى ساح فيها نظيراً له ولا بلداً أجمل منه، ولم يلبث أن سمع البمبوطية من أهالى بورسعيد الذين اقتربوا بقواربهم الصغيرة من المركب، وهم يتكلمون ويتصايحون بالعامية المصرية التى هو شاعرها الأكبر، فلم يستطع أن يتمالك نفسه فنادى عليهم وقد قرر النزول إلى مصر مهما كلفه الأمر، ودون أن يعبأ بالحكم الصادر ضده بالسجن فى حال دخوله الأراضى المصرية.. وقفز من المركب، لتتلقفه مصر التى عشقها بيدها الحانية فتحتضنه وتأويه فى رحابها بين أصدقائه وعشاق فنه الذين سعوا له، حتى نال العفو من ملكها الشاب برغم هجائه المقزع لأبيه وأمه معاً.

فى بورسعيد السفينة وقفت تفرغ وتملا
والبياعين حوطونا بكارت بوستال وعمله
لكن بوليس المدينة ماتفوتشى من جنبه نملة
يا بورسعيد والله حسرة ولسه يا إسكندرية
هتف بى هاتف وقال لى انزل ومن غير عزومة
انزل دى ساعة تجلى فيها الشياطين فى نومه
انزل دا ربك تملى فوقك وفوق الحكومة
نطيت فى ستر المهيمن للبر يا حكمدارية
وأقول لكم بالصراحة اللى فى بلادنا قليلة
عشرين سنة فى السياحة بشوف مناظر جميلة
ما شفت يا قلب راحة فى دى السنين الطويلة
إلا اما شفت البراقع واللبدة والجلابية

جمع عبد المعطى قصاصات الجرائد والمجلات التى نشرت القصيدة وحكاية شاعرها واحتفظ بها، وبين الحين والآخر يعيد قراءتها وهو يقول فى نفسه، بلدنا جميلة، والله له حق بيرم يموت نفسه علشان يرجعلها تانى، طبعاً مش أم الدنيا والخارج منها مفقود.. مع إنها دايماً بتظلم ولادها وتبهدلهم! لكن معلهش مسامحينها.

بعد ما حدث من ثورة وتغيير مباغت أطاح بتاريخ طويل بدا كنفق لا نهائى سارت فيه أجيال متتابعة لا يحصى عددها إلا الله، عانت ما عانت دون أن يبدو فى الأفق بريق من أمل حتى اعتقد الناس أن الحياة ستستمر على هذا المنوال إلى قيام الساعة، تفتحت فجأة أمام عبد المعطى سبل القراءة وأصبح يستطيع

الحصول على الجرائد بعد صدورها بيوم أو يومين على الأكثر، أما الكتب التى كانت حلماً مستحيل التحقيق فقد أصبحت فى متناول اليد، وأصبح باستطاعة عبد المعطى لا قراءتها فحسب بل واقتناؤها أيضاً وبأسعار زهيدة، وبالرغم من وصول الراديو إلى القرية، ثلاثة أو أربعة أجهزة يتحلق الناس حولها ليستمعوا إلى نشرات الأخبار وخطب الرئيس والأغانى، فإن عبد المعطى ظل هو الوحيد الذى يعرف ما يجرى وما الذى يمكن أو لا يمكن فعله، خاصة فيما يتعلق بالتعامل مع الحكومة ورجالها الكثيرين من موظفى الأملاك والمديرية والجمعية والإرشاد الزراعى والمجلس المحلى الذين لا يتوقفون عن الحضور إلى القرية والعزب، والمرور على الزراعات ومتابعة كل صغيرة وكبيرة، مما يتسبب فى ارتباك الأهالى أمام هذا الجيش من الموظفين الذى يمثل سطوة الحكومة التى عاشوا أعمارهم وهم يخشونها ويخافون رجالها.

بدأ الرجال يستفهمون عبد المعطى ويلحون عليه فى السؤال عن مشروعية البناء على أراضيهم، والتى بدت لهم فرصة لا يمكن تركها تمر هكذا ببساطة، فرصة للخروج من العزبة وبيوتها التى ضاقت عليهم إلى رحابة حقول الدلتا الواسعة، التى تبلغ مساحتها ثلاثة ملايين من الأفدنة المترعة بالخضرة، وتعد بلا مبالغة أكثر أراضى العالم خصوبة، الأرض التى ظلت لآلاف السنين مصدر الرخاء للمصريين.

سرعان ما ضاق عبد المعطى بأسئلة الناس وجهلهم كعادته، فهو مثل كل الذين لم ينالوا ما يعتقدون أنهم يستحقونه ويرون أن الدنيا قد ظلمتهم ولم تُقدر نبوغهم وتميزهم، ضيق الصدر سريع

الغضب يصب إحباطه على كل الذين يعرفهم من أهل وجيران، يراهم أغبياء دون مستوى عقله، حتى أولاده الذين ولدوا كبقية أهله بعقول محدودة ضيقة.

- اذهبوا إلى المجلس المحلى واسألوا هناك.

كان ينهى الجدل والكلام الكثير بهذه العبارة الآمرة ليتخلص من الموضوع برمته، فهو لا يملك الإجابات كما يعتقدون، كان فقط يفكر معهم بصوت عال، طرح فكرة خطرت على عقله ليس إلا، لكنهم أمسكوا بتلابيب عقله وفكرته حتى خنقوه.

****

حدثت جلبة مفاجئة من غرفة قريبة وعلا صياح بعض الشبان بها، قام جلال وخلفه فرج وقد أصابهما الفزع ليستطلعا الأمر، دخلا الغرفة فوجدا أحد شبانها يئن من المرض وقد أصابته حالة قىء وإسهال ورفاقه مرتبكون لا يدرون ماذا يفعلون لينقذوه، المرض لا محل له فى هذا المكان، لا يحق لأحد منهم أن يمرض برغم ماء الآبار المالح الذى يشربون منه، والطعام الردىء الذى يأكلونه حتى هزلت أجسامهم وفقد معظمهم الكثير من الوزن خلال الفترة التى قضوها فى هذا المكان، برغم نشأتهم الفقيرة وتعودهم على الطعام الرخيص والماء الملوث! لم يكن أمامهم سوى أن ينادوا على الحارس البدوى الذى يسكن على مقربة.

نظر الرجل إلى المريض بضيق كأنه يحمله مسئولية مرضه الذى أقلق راحته.

- ما عندى علاج، خلوه ينام والصبح يصير طيب، الله كريم.

قالها الرجل وانصرف وتركهم يتخبطون فى حيرتهم وعجزهم، بعد أن أغلق عليهم الباب الخارجى، ظل المريض يتوجع طوال الليل دون أن يستطيع أحد أن يقدم له يد المساعدة، وعندما أتى الصباح كان قد بدأ يهذى ويتفصد عرقاً ويشحب لونه وتنتابه نوبات من الإغماء مما دفع زملاءه للاستغاثة بالحارس مرة أخرى، وتجادلوا معه فى نقله لأى مستشفى أو عيادة أو حتى إحضار بعض الأدوية له، لكن الرجل أصر على أنه لا يستطيع فعل شىء، وأن أى تحرك قد يعرضهم لخطر القبض عليهم جميعاً، لأن دوريات الشرطة لا تتوقف عن المرور بحثاً عن المتسللين ومن يساعدونهم من البدو، وقال فى نهاية كلامه بنبرة تحذير تحمل الكثير من الوعيد، إن الموت أهون من دخول السجن هنا، على كل حال ننتظر الجماعة يمكن يكون عندهم حل.

لم يحضر أحد من الجماعة فى ذلك اليوم، وعند المساء كان لون المريض قد ازرق وبدا كأنه يختنق، ولم يلبث أن ودع الحياة فى ساعة متأخرة من نفس الليلة، لم يعرف أحد من الشبان كيف عرف البدو الخبر فى الحال، لأنهم حضروا بعد حدوث الوفاة بقليل، فى هذه المرة فقط تخلوا عن غلظتهم وتعاملوا مع الشبان بلين وعزوهم فى زميلهم ووقفوا فى الغرفة لعدة دقائق يواسونهم قبل أن يشرعوا فى لف الميت بملاءة أحضروها معهم، ولما هموا بالانصراف وهم يحملون الجثة، أراد بعض الشبان الخروج معهم لحضور الجنازة والصلاة على الميت، قالوا لهم بهدوء، إنهم مسلمون موحدون بالله، وسوف يصلون عليه ويدفنونه حسب الشريعة، وإن عليهم أن يطمئنوا من هذه الناحية.

4

ظل عبد الواحد مشغولاً بفكرة بناء بيت لابنه فاروق على أرضه، فى البدء أقنع نفسه أن اقتطاع مساحة صغيرة لن يؤثر على الثلاثة فدادين ولن يُنقص منها شيئاً، كما أن وجود فاروق على رأس الحقل سيجعله يراعى الزرع ويحرسه طوال النهار والليل، ولن يضطر إلى قطع هذا المشوار الطويل مرتين فى اليوم.

بعد العشاء أشعل عبد الواحد كومة من الحطب أمام داره، جلس القرفصاء أمام القصعة يرقب النار ويعدل أعواد الحطب بسيخ حديد فى يده مستمتعاً بالدفء المنبعث منها، ثم قام بعد أن اطمأن أن النار قد أمسكت بالحطب وحولته إلى جمر متقد، تناول الجوزة وفكها ثم غسل أجزاءها تحت الطلمبة اليدوية وملأها بماء نظيف وأعاد تركيبها ووقف يختبرها ويتأكد من ضبطها، أصدرت الجوزة كركرة طويلة وبدت مهيأة، رجع عبد الواحد إلى قصعة الحطب فوجد ألسنة اللهب قد خفتت وقطع الجمر تومض متوهجة فى ظلمة أول الليل، فأخذ يسويها بالماشة الطويلة ويكبسها داخل الرماد ليمنع عنها الهواء، وهو ما يجعلها تظل مشتعلة لساعات، ثم حمل القصعة بكلتا يديه إلى الداخل بجوار باب الدار المفتوح حيث جلسته المعتادة فى الشتاء وأرسل ابنته أحلام لتنادى عمها عبد المعطى من داره القريبة.

سرح عبد الواحد وهو يشرب الشاى فى أمر بيت فاروق، كان قد استقر بعد طول تفكير على المكان الذى يصلح للبناء، اختار أقرب قطعة من الثلاث قطع إلى العزبة، ومن حسن الحظ أن

هناك طريقاً يمر بجوارها، ارتاح للفكرة وراقته تماماً حتى إنه رأى البيت فى خياله وقد اكتمل، لكن بقيت مسألة التعامل مع الحكومة وموظفيها.

***

أدرك عبد المعطى أنه فى حاجة إلى نظارة، أصبحت السطور تتموج أمامه وهو يقرأ ويشعر بوجع فى عينيه بعد أن يجهدهما فى القراءة، يعرف أنه تجاوز الأربعين بثلاث أو أربع سنوات، لذلك اتخذ قراره ولم يتردد فى الذهاب إلى الطبيب للكشف، وبعدها حمل الكشف وسافر إلى المركز حيث محل النظارات الوحيد الذى يمتلكه أحد الخواجات.

- هذه النظارة ستكلفك ثلاثين قرشاً.

يا خبر أسود يا خواجة، قالها عبد المعطى فى نفسه وجاهد لكى يتماسك ويظهر بمظهر الرجل المتعلم صاحب الأملاك الذى لا تهمه الماديات.

فهم الخواجة بخبرة الستين عاماً فى التجارة، تعامل خلالها مع كافة أنواع البشر، طبيعة عبد المعطى ومدى حرصه على المال، وأنه لولا شدة حاجته للنظارة لما حضر إليه من الأصل، فأردافه بعبارته الثانية بحسم لا يدع مجالاً للفصال أو الجدل.

- تدفع الآن وتحضر بعد عشرة أيام لتتسلمها.

أخرج عبد المعطى الثلاثين قرشاً ودفعها صاغراً، وتسلم من الخواجة الإيصال ودقق فيه النظر ثم خرج من المحل، كان قد قرر أن ينتهز فرصة سفره إلى المركز ليمر على المكتبات وباعة الكتب ليشترى ما يحتاجه منها، بالنسبة إليه تعتبر الكتب

والمجلات هى الشىء الوحيد الذى يشتريه ويدفع عن طيب خاطر.

لا يُعد عبد المعطى فلاحاً ماهراً، فهو لا يملك الجهد البدنى الذى تتطلبه مهنة الفلاحة، ليس عن ضعف جسدى أو اعتلال صحة، فهو رجل متين البنيان موفور الصحة أقرب إلى الطول، لكنه بطبيعته يميل إلى العمل العقلى لا البدنى، وسرعان ما يمل من بذل المجهود العضلى وتزهق نفسه، ولولا أن الفلاحة فُرضت عليه وعلى أسلافه غصباً ولم يجد عملاً غيرها منذ طفولته لما اتخذها مهنة أبداً، كان العمل فى الفلاحة قدره الذى لم يستطع أن يجد منه مهرباً، وعد ذلك من جملة سوء حظه الذى لم يتح له أى فرصة للاستفادة من مواهبه وذكائه، حتى عندما وزعت الأرض عليهم كان فى ذيل القائمة ونال فدانين فقط.

كان الحظ حليفى دائماً وكنت أعرف أنه كذلك، عندما قرأ هذه العبارة التى أمر أحد المشاهير أن تنقش على قبره، ضحك مغتاظاً وتخيل لو أنه كتب جملة عكسية لها لتوضع على شاهد قبره، كنت سيئ الحظ دائماً وكنت أعرف أنه كذلك.. لأ ليست هكذا، العبارة مش راكبة.. كنت دائماً سيئ الحظ وكنت.. ولا هذه أيضاً.. كان حظى قليلاً دائماً وكنت أعرف أنه كذلك.. كده يعنى ممكن تركب، لكن لأ مش نافعة هى كمان.. كان الحظ ضدى دائماً وكنت أعلم أنه كذلك.. آه كده تنفع.. ظل يرددها فى ذهنه ويفكر فيما لو كتبها بالفعل على قبره ومدى مايمكن أن تفعله فى أهل عزبته إذا قرأها أحد لهم.

فى الجلسات المسائية سواء كانت سهرة رى أو غيرها، كان عبد المعطى يخرج عن مألوف الكلام ويتحدث فى موضوعات

بعيدة عن عالم العزبة الضيق النائى، عزبتهم تقع فى الأطراف البعيدة عن القلب لكنها متصلة به اتصالاً وثيقاً، وتلتحم بالأراضى التى توجد بها القرى القديمة التى تضرب بجذورها فى عمق التاريخ، فمع حركة الاستصلاح التى أنشأها محمد على باشا دخلت عشرات الآلاف من الأفدنة إلى حيز الأراضى الزراعية، وتحولت من برك ومستنقعات وأراض سبخة إلى حقول، ولما كان من المستحيل أن يظل فلاحو الأرض فى قراهم ويذهبوا للعمل فى الحقول التى تبعد عنهم بعشرات الكيلومترات، فقد تولى إنشاء تجمعات سكنية لهم قرب عملهم وانتقل الكثيرون ليستقروا فيها.

سُميت هذه المناطق الجديدة بالعزب ومفردها عزبة من عزب الشىء أى بعُد وخفى، وتعد العزبة إجمالاً من التوابع الريفية التى بعدت عن القرية الأم جغرافياً ومكانياً، فى هذه العزب النائية التى قلت بها الخدمات العامة، ضاعت كرامة الفلاحين الأجراء وتعرضوا لشتى المظالم بسبب وقوعهم تحت رحمة السادة من المُلاك وأصحاب العزب والأطيان.. لكن مع الأيام وزيادة أعداد الناس اقتربت العزب من بعضها وتحولت إلى كتل سكانية أصبحت قرى بدورها، لكنها ظلت فى الأطراف البعيدة النائية.

منذ أن تزوج عبد المعطى وهو يشترى لمبات الجاز الأكبر حجماً ليتمكن من القراءة ليلاً، ولما جاءت بشائر الثورة وبدأت حركة الإصلاح أصبح يتعجل اليوم الذى ستدخل فيه الكهرباء إلى قريتهم، فالحكومة الشابة تعمل بنشاط ولا تتوقف عن إقامة المشروعات فى الريف وعلى رأسها الإنارة، لكن العزبة البعيدة

تأتى فى آخر الطابور الطويل، كم تمنى لو أنه ولد فى قرية من القرى الكبيرة بدلاً من هذه العزبة التعسة وقريتها الهامشية، ساعتها كان سيستطيع أن يذهب إلى المدرسة، من شتات الأخبار التى يقرأها فى الجرائد عرف أن العديد من الضباط الذين وصلوا إلى السلطة ويحكمون مصر الآن، ريفيون نشئوا فى القرى لأسر فقيرة، لكن التعليم فى المدارس جعلهم يشقون طريقهم إلى المدرسة الحربية، كان من الممكن أن يسير فى نفس الطريق ودون عوائق لو أتيحت له الفرصة، لكن الظروف الظالمة التى تعرض لها هو وأهله لم ترض لهم إلا أن يكونوا فلاحين، سدوا أمامهم جميع سبل الحياة ليظلوا يعملون فى الأرض، حتى الزعماء الوطنيون أصحاب الأسماء الرنانة، سواء الذين ظهروا قبل ثورة العام التاسع عشر أو الذين ظهروا معها، لم يفكر رجل منهم فى حال الريف والظلم الذى يعانيه الفلاحون، ولم يفكروا فى المطالبة و لو بالحد الأدنى للحياة الكريمة لهم، مع أنهم كانوا مطلعين على تلك الحياة ويعرفونها ويعرفون مدى الشقاء الذى يرزح تحته أهل الريف، لكن هؤلاء الزعماء أنفسهم كانوا من طبقة المُلاك والأعيان، يمتلكون العزب والأطيان ويكسبون من تردى أحوال الفلاحين ورخص أجورهم، كانت الوطنية عندهم هى محاربة الإنجليز فقط، والمؤسف أن الإنجليز المحتلين هم الذين ألغوا عقوبة جلد الفلاحين بالكرباج ومنعوها من الريف، وقبل احتلالهم للبلاد كان من الممكن للفلاح الأجير أن يُضرب بالكرباج حتى الموت على أتفه خطأ يرتكبه وبلا أى دية.

ظل عبد المعطى شارداً فى أفكاره حتى نادت عليه أحلام ابنة عبد الواحد من جانب باب داره، وأخبرته أن أباها يريده.
قدر عبد الواحد أنه فى أسوأ الأحوال قد يتعرض للتهزىء والبهدلة وربما يسمع كلمتين شتيمة، عند تقديمه طلب بناء البيت لمجلس القرية المحلى وهو أمر مقدور عليه، ولتمسكه بالأمل مهما كان ضئيلاً وأن المحاولة ربما يكتب لها النجاح أصر على الذهاب، وأراد أن يصطحب عبد المعطى معه لأنه صاحب الفكرة أولاً، ولأنه يستطيع الكلام مع موظفى الحكومة أفضل منه ثانياً، وثالثاً وهو الأهم لكى يتلقى هو إهانتهم وتوبيخهم فى حالة رفض الطلب، أو إذا كان فى تقديمه ما يتعارض مع القانون أو ما شابه من إجراءات الحكومة المعقدة...
- نحن أعطيناكم الأرض لتزرعوها أم لتبنوا عليها بيوتاً؟ يا بقر يا ولاد الكلب!
هذا ما كان عبد الواحد يتوقعه كرد فعل من موظف المجلس، وهو يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى بينما يسير بصحبة عبد المعطى فى طريقهما إلى القرية حيث المجلس المحلى، لم يوافق عبد المعطى إلا بعد إلحاح وجدل طويل دار بينه وبين عبد الواحد حاول خلاله أن يسوف فى الكلام ليتملص من المشوار، لكن عبد الواحد أطبق عليه وظل به حتى وافق فى نهاية الأمر على مضض.

نظر إليهما الموظف مستغرباً بعد أن شرح له عبد المعطى رغبة عبد الواحد فى البناء على أرضه، تكلم وهو يشير إليه ليحمله المسئولية وتعمد أن يؤكد أكثر من مرة أنه أتى لمساعدة

جاره الذى لا يقرأ ولا يكتب وأنه لا مصلحة له فى الموضوع بتاتاً...

رد الموظف بعد ما استمع بصبر وهو ينظر واجماً إلى الرجلين الواقفين أمامه يغمرهما الارتباك والتردد، وبعد أن أخذ وقته فى التفكير ليقلب المسألة فى رأسه قبل أن يجيب، فقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يتقدم فيها أحد المُلاك الجدد بمثل هذا المطلب.

- من الناحية القانونية لا يوجد ما يمنع، فمن حق المالك أن يبنى بيتاً خاصاً له على أرضه ليسكن فيه..!!

***

سار صابر ثالث أبناء عبد الواحد وهو يرتدى زى الجنود عبر الطريق الذى يخترق الحقول، كان قد استدعى للخدمة العسكرية بعد أن حصل على دبلوم التجارة، قضى أكثر من سنتين وكادت مدة تجنيده أن تنتهى، أمامه سفر طويل إلى وحدته فى صحراء سيناء، عليه أن يسير ما يقرب من الثلاثة كيلومترات حتى يصل إلى الطريق الأسفلت الجديد الذى شقته الحكومة منذ فترة وجيزة، انقضت أيام الإجازة سريعاً، مر قرب المصرف الجديد الذى شقته الحكومة منذ سنوات، سرعان ما تجاوزه حتى وصل إلى الجسر الخشبى القديم الذى أصدر صريره المعتاد وهو يعبر عليه وبدا كأنه يوشك على الانهيار، عمره قد يصل إلى مائة عام، لكنهم سوف يجددونه فى القريب، بدأوا بالفعل أولى خطوات التنفيذ، شكائر الأسمنت وأسياخ الحديد تتراص بجواره على ضفة الترعة تمهيدا لبناء جسر أسمنتى.

أكمل صابر طريقه وهو يتوثب برغم القلق الذى يعتريه، قلق من سوف يواجه حدثاً مثيراً لا يعرف إلى أى مصير سينتهى به،

الأحوال فى الجيش عموماً مضطربة واحتمال الحرب قائم، يشعر بدغدغة الفرحة فى قلبه لكونه سيشارك فى صنع النصر القادم بكل تأكيد، لكنها الحرب فى النهاية، ليست شيئاً هيناً، قد يموت وينتهى عمره، وقد يصاب، مهما كانت النتيجة بالنسبة له سيكون قد أدى دوره فى الانتصار على العدو.

تنفس هواء الصباح النقى متأملاً جمال الريف، موطنه الذى يحبه، نظر إلى الخضرة الممتدة كبساط فردوسى فى نهايته ترتفع مداخن المصنع، تبدو من بعيد مثل أقلام الرصاص المسنونة، ترتفع من أعلاها أدخنتها الرمادية تلون زرقة السماء أو تعفرها بغلالة رقيقة، عدد كبير من سكان العزبة والعزب المجاورة يعملون فى المصنع، منهم بعض أصدقائه وزملاء دراسته، هو أيضاً له وظيفة مضمونة فيه بعد أن يقضى مدة تجنيده، الأمر الذى يسعد به ويعتبره تتويجاً لنجاحه فى الحصول على شهادة دراسية تكفل له الخروج من العمل الزراعى ومن ارتداء الجلباب وحمل الفأس، كان قد سمع من أبيه حكايات كثيرة عن أيام الإقطاع والذل التى عاشتها أجيال متوالية من أجداده، هو أول من خرج منهم ليعمل فى مهنة أخرى.. محترمة ينجو بها من الشقاء الأبدى الذى فرض على سلالته، كون أبيه من المُلاك وله ثلاثة أفدنة يعيشون جميعاً من خيرها، لا يغير من الأمر شيئاً طالما أن العمل بالفأس هو المصير، كان فى السابعة من عمره عندما انتهى عهد الإقطاع وخرج الخواجة من الأرض، لذلك لم يعمل يوماً واحداً تحت سيف الإقطاع بعكس شقيقيه الأكبر فاروق وعامر اللذين أمضيا فترة صباهما المبكر فى العمل بنصف يومية بجانب أبيهما، ومازالا يتذكران كرستينا

بنت الخواجة ويتغزلان فى جمالها، برغم أنهما يلعنان أباها وأيامه السوداء.

من حسن حظ عبد الواحد أن ابنيه الكبيرين لم يصبهما الدور فى التجنيد وظلا بجانبه يساعدانه فى زراعة الأرض وتربية الماشية التى كثرت لديهم، أما صابر ابن المدارس فكان يعمل معهم فى فترة الإجازة الصيفية وكذلك أخوهم الأصغر جمال الذى التحق بالمدرسة، لم يكن عبد الواحد يحلم وهو شاب أن يُعلم أحداً من أولاده ولا تصور أن يكون له ابن متعلم، ويحمل شهادة.. أفندى بمعنى الكلمة، فما بالك بولدين، الدنيا أعطته أكثر مما كان يتمنى بفضل الله ونعمته , وكذلك بفضل الثورة والرئيس الذى حول حياتهم إلى نعيم.. لكن هذا لم يمنع حدوث بعض المنغصات التى أصبحت تسبب له القلق وتزعج خاطره، لم تعد الجمعية تتعامل معهم بنفس النزاهة التى كانت، رائحة الحرام تفوح فى جو القرية، أصبحت هناك سوق سوداء لتجارة الأسمدة والمبيدات والتقاوى، وموظفو الجمعية يقولون بمنتهى البرود والبجاحة إن الكميات التى تصلهم قليلة لا تكفى الجميع، وإن عليهم أى الفلاحين أن يدبروا حالهم ويشتروا ما يلزمهم من أى مكان فى الدنيا الواسعة..!

أما النكبة ففى أسعار بيع المحصول التى ظلت على حالها لسنوات طويلة، والموظفون يشددون عليهم فى التوريد ويتهمونهم بالسرقة واللصوصية إذا انخفض المحصول لأى سبب، حتى لو كان هذا السبب رداءة التقاوى التى يحصلون عليها من الحكومة نفسها!

مـن جـانبهم بـدأ الأهـالى مـن الفلاحـين فـى مواجهـة تعسـف الموظفين بالحيلة والمكر، ولم يعودوا يوردون محاصيلهم كاملة، يقتطعون من القطن والغلة والأرز وسائر ما يزرعونه بقدر ما يستطيعون ويخزنونه فى بيوتهم لحاجاتهم أو ليبيعوه إلى التجار بعد ذلك، وقد أخذ إحساس قديم بالظلم كانوا قد نسوه يشوب علاقتهم بالحكومة التى تجبرهم على زراعة ما تشاء وتفرض عليهم أسعار البيع.. إلى حد ما كما كان المُلاك القدامى يفعلون.

قال عبد المعطى لأحد الموظفين وهو يتجادل معه عند تسليم محصول القطن، وكان قد اقتطع منه كمية كبيرة لجهاز إحدى بناته التى على وشك الزواج.

- نحن نملك ولا نحكم!

لم يفهم الموظف معنى الجملة إلا لماماً، ونظر لعبد المعطى شزراً وقال له بانفعال وقد شعر بفداحة جهله أمام هذا الفلاح الفصيح.

- إنت حتتكلم بالنحوى، تملك إيه وتحكم إيه، إنت تشوف شغلك وبس وتورد ما عليك زى بقية الناس.

يومها ظل الكبار صامتين وقد عقدت الجملة الغريبة ألسنتهم، بينما غرق الشبان الذين نور التعليم عقولهم فى الضحك على عمهم عبد المعطى الذى يشبه نفسه بالملوك.

****

بعد عدة أيام حضر البدو عصراً متعجلين وأخبروا الشبان، أن على أول خمسين منهم أن يستعدوا للسفر عند منتصف الليلة، بدأوا فى إلقاء التعليمات على الشبان الذين توترت أعصابهم

وتنازعت مشاعرهم ما بين الفرح والخوف من المغامرة التى يعلمون مدى خطورتها.
- لا تحملون شيئاً معكم، لا أمتعة ولا حقائب، ستركبون المركب بملابسكم فقط، ارتدوا منها ما تستطيعون؟!
حاول البعض الاعتراض أو مناقشة الأمر، لكن البدو زجروهم بعنف ليسكتوهم معلنين أن الأوامر غير قابلة للنقاش.
- أنتم مسافرين تهريب، لازم تفهموا، تهريب يا بقر، يا حمير، إيش الواحد منكم بيفكر؟ قاطعين تذاكر وطالعين على الباخرة!!
كانوا يتكلمون وأسلحتهم النارية مشرعة فى أيديهم أو معلقة على أكتافهم من أحزمتها الجلدية، بينما انزوى الشبان الخمسون الآخرون فى أماكنهم صامتين يرقبون الموقف دون أن يشاركوا بكلمة كأن الأمر لا يعنيهم.
أخذ شبان الفوج الأول يستعدون ويجهزون أنفسهم للسفر، مع أنه لم يكن هناك شىء ليفعلوه، لكن الحماس جعلهم لا يتوقفون عن الحركة، الأمر بالفعل ليس تذكرة سفر وركوب باخرة، إنهم مقبلون على تجربة قد تكلفهم حياتهم، ارتباك، حيرة، شىء من تردد اللحظة الأخيرة، حسم الموقف والإقدام، العمر واحد والرب واحد، الموت أفضل من الفقر، الموت أفضل من الحياة فى هذه البلد ومن الحياة التى نعيشها فيها، لو لنا رزق هناك سنعبر بسلام، ما أجمل اليوم الذى يصحو فيه الإنسان فيجد نفسه فى بلد آخر ويعيش فى دنيا نظيفة غير عيشتنا الزفت، مهما كانت الظروف التى سنواجهها فلن تكون أصعب مما مر بنا حتى لو كان السجن أو الموت نفسه، على الأقل الإنسان يرتاح

من التعب والشقاء المكتوب علينا بلا ذنب فى هذه البلد، الواحد نفسه يخلص من الهم والعيشة النكد بأى شكل.. بأى شكل.

فى نحو العاشرة مساءً جاءت سيارتان ميكروباص وسيارة جيب مطفأة الأنوار، ووقفوا أمام باب البيت مباشرة، بعد أن سلم أفراد الفوج الأول على زملائهم انتظموا فى صف واحد حسب أوامر المهربين وبدأوا فى الصعود إلى العربات.

يختار المهربون ليالى الشتاء التى يغيب فيها القمر لينفذوا عملياتهم حتى يتجنبوا قدر الإمكان دوريات الشرطة فى البر وخفر السواحل فى البحر، الظلام الحالك هو أول ما واجه الشبان بعد الخطوة الأولى خارج باب البيت الذى مكثوا فيه لأكثر من ثلاثة أسابيع، لفحهم هواء الصحراء الثلجى فارتعدوا لكنهم لم يبالوا من فرط سعادتهم ببدء السفر.. أخيراً، لا إرادياً تنفسوا الهواء النقى بعمق كأنهم يغسلون صدورهم من هواء البيت الراكد المشبع برائحة الدخان والجاز المحترق والأجساد التى لم تغتسل منذ أسابيع، كدسهم المهربون فى السيارتين الميكروباص كأنهم يرصون شكائر أسمنت، يمسكون بالواحد منهم من كتفه ويدفعونه داخل السيارة ليجلس فوق زميله، قاموا بعملهم بسرعة بلا كلمة ولا صوت لينتهوا من تعبئة السيارتين فى لحظات.

سارت السيارتان بحمولتهما الثقيلة تتبعهما السيارة الجيب فى ظلام دامس دون أى إنارة، جميع مصابيح السيارات الخارجية والداخلية مطفأة حتى نور التابلوه، ولم تلبث مطبات المدق الوعر أن أخذت فى رج ركاب السيارتين بعنف من فرط سرعة

سيرهما، لكن الأمر لم يطل فسرعان ما وصلوا إلى شاطئ البحر.

كان فى انتظارهم عدة رجال يمسكون بحبال زورقين مطاطيين يتلاعب بهما الموج على بعد مترين أو ثلاثة من الشاطئ.

- هيا أسرعوا.

قال كبير المهربين وهو يشير للشبان باتجاه الزورقين.

كان على الشبان أن يخوضوا فى الماء حتى منتصف أجسادهم ليصلوا إلى حيث يقف الزورقان، المياه السوداء بدت مخيفة، أما البحر فكان مرعباً بأمواجه المزمجرة وصوت الرياح الباردة وهى تصفر على سطحه الهائج، اندفع معظم الشبان وخاضوا الأمتار التى تفصلهم عن الزورقين بجسارة وألقوا بأنفسهم داخلهما، وقد فقد أغلبهم أحذيتهم بعد أن ابتلعتها رمال الشاطئ الناعمة، بينما تردد البعض وتوقفوا بمجرد ملامسة أقدامهم الماء، لكن المهربين سبوهم ودفعوهم من أكتافهم بغلظة نحو البحر.

5

بعد مشوار طويل وصل صابر إلى معبر شمال البحيرات على طريق السويس الإسماعيلية، عبرت السيارة العسكرية القناة وامتدت أمامها صحراء سيناء المترامية، سارت السيارة على الطريق الأسفلتى الضيق الملىء بالحفر والمطبات، فى البداية اجتازوا نقطة التفتيش التابعة للمخابرات، سيناء بأكملها تعتبر منطقة عسكرية ولا يجوز للمدنيين دخولها برغم وجود العديد من القبائل البدوية التى تعيش فيها، بالإضافة إلى بقايا وأثار عدة مدن صغيرة بالغة القدم تؤكد أن المصريين استوطنوا سيناء منذ العصور الأولى للحضارة الفرعونية!

لم يكن الطريق هادئاً كما عهده صابر، حشود هائلة من عربات نقل الجنود الضخمة وطوابير من العربات المدرعة والدبابات وآلاف الجنود والضباط يتحركون على الطريق وأيضاً على مدقات الرمال القريبة.

جلس صابر داخل صندوق اللورى الضخم المصنوع من أسياخ الحديد والمغطى بقماش سميك كاكى اللون، كان هناك شباك زجاجى صغير يفصل بينه وبين مقصورة القيادة حيث يجلس ضابطان شابان بجوار الجندى سائق العربة.

عند الظهيرة، وفى جو مايو المائل للحرارة، مد أحد الضابطين يده وفتح الشباك ونادى على صابر.

- يا أمباشى صابر.

- نعم يا فندم.

- لو حد من العساكر عايز يدخن، سيجارة واحدة.

- شكراً يا فندم.
من المعتاد أن السيارة تقطع بهم الطريق إلى وحداتهم فى وسط سيناء والتى انتقلوا إليها منذ عدة أشهر فى ساعة ونصف تقريباً قد تزيد قليلاً، أما فى هذا اليوم فقد مضى عليهم عدة ساعات ومازالت أمامهم مسافة طويلة.
أخرج معظم الجنود سجائرهم ودخنوا السيجارة المسموح بها فى نهم قلق، وكل منهم غارق فى التفكير فيما ينتظرهم خلال الأيام القادمة، معظم الجنود قادمون من الاحتياط بعد ترك الجندية، منذ سنوات نسوا خلالها ما تعلموه عن العسكرية بعد أن انقطعت صلتهم بالجيش، كانوا يحملون ملابسهم المدنية فى الحقائب ليرتدوها وهم عائدون.
صابر يعمل كجندى شئون أفراد وهو المكان الذى يخصص عادة للجنود المتعلمين، الدبلوم الذى يحمله هو أعلى مؤهل دراسى بين الجنود، فلم يكن بينهم جامعيون أو خريجو معاهد عليا، فهم صابر من خلال علاقته بالضباط وحديثه معهم أثناء الساعات الطويلة التى يقضونها فى المكتب، أن الجامعيين غير مرغوب فيهم من القيادة خوفاً من إثارتهم للقلاقل بين الجنود بسبب الأفكار الهدامة والفلسفة الفارغة التى يتعلمونها فى الجامعة، فالأغلبية الساحقة من الجنود أميون أمية كاملة، بينهم عدد بسيط من الحاصلين على الابتدائية وعدد أقل حاصلون على الإعدادية، أما الذين تعلموا إلى الثانوية العامة أو ما يعادلها مثل صابر ففى غاية الندرة.
قضى صابر سنة وعدة أشهر فى السويس كجندى فى سلاح المشاة، مرت فى هدوء وسلام لم يحدث خلالها ما يعكر الصفو،

بالنسبة له كشاب ريفى لم يجد فى حياة المعسكرات أى صعوبة بل على العكس أعطته الجندية حرية وفتحت له آفاقاً جديدة فرح بها، مر على القاهرة وسار فى شوارعها وميادينها الواسعة ورأى عماراتها العالية وفيللها وقصورها الفخمة بحدائقها الباذخة.

أحب الجلوس فى مقاهى باب الحديد مع زملائه أثناء انتظار القطار الحربى، خاصة ذلك المقهى القديم الذى يعمل فيه جرسون يونانى، مقهى نظيف موائده رخامية، توجد مرايا لامعة على جدرانه وأرضه مغطاة بطبقة من نشارة الخشب، خلال تلك الفترة تعلم التدخين وشرب القهوة مثل أبناء المدن ولم يجد مانعاً فى احتساء زجاجة بيرة بين الحين والآخر، جيبه كان عامراً بالمال، يأخذ من أبيه ثلاثة جنيهات كاملة فى كل إجازة.

بسرعة تحولت السويس إلى مدينة محببة لصابر يألفها وتألفه بعد أن كان يشعر بالغربة فيها ويخشاها كما يخشى القروى أى مدينة، تعود أن ينزلها مرتين أو ثلاث فى الأسبوع، يتمشى على البحر ويتجول فى أسواقها خاصة سوق السمك الذى يحبه ويستمتع بأكله، ويشاهد أسماك البحر الأحمر الملونة متعجباً من كثرة أنواعها وأشكالها وضخامة بعضها إلى حد مذهل بالنسبة له، فلم يكن يعرف من أنواع الأسماك إلا بلطى الترع الصغير والقراميط.

فى الصيف صُدم بوجود المصطافين على الشاطئ وفى شوارع المدينة وأسواقها، الفتيات والنسوة بالمايوهات وملابس البحر الخفيفة، حدق فيهن كأنهن مخلوقات غريبة أتت من عالم آخر ومن جنس لا ينتمى إليه، لكنه لم يلبث أن تعود الأمر وتآلف معه

ليبدو بعد ذلك عادياً لا يثير الانتباه ولا الدهشة فضلاً عن الاستغراب.

- إحمد ربنا إنك لم تدخل الجيش قبل سنتين، وإلا كنت رُحت معنا هناك.

قال له طلعت الجندى الذى انتهت مدة خدمته بالقوات المسلحة وهو يسلم مهماته بعد عودته من اليمن.

- لماذا؟

رد عليه صابر الذى لم يعرف فى الجيش إلا الترف والأيام الرغدة، وامتلأ عقله بأخبار الانتصارات المبهرة والأمجاد التى تحققت فى اليمن.

- شفنا أياماً سوداء الله لا يرجعها!

بُهت صابر وكاد ينهض عن مقعده فى مكتب الأفراد ليرد على العسكرى الوقح الكذاب، لكن بؤس حاله والإرهاق البادى عليه والمرارة التى تكلم بها جعلت صابر يتراجع، وقام بإنهاء أوراق الجندى السكندرى الذى وقف برغم كل شئ وقفة توحى بأنه على استعداد للشجار مع عسكرى الأفراد البارد ابن ميتين الكلب.

أعطى صابر الأوراق لطلعت ابن حى الأنفوشى، دون أن يخطر بباله أنه سوف يراه مرة أخرى بعد شهور قليلة عندما يتم استدعاؤه من قوة الاحتياط، وأن هذا العسكرى الرذل الذى تعامل معه بجفاء سوف يصبح صديق عمره.

تذكر صابر بعد أن غادر طلعت المكتب حال الجنود العائدين من اليمن، لم يجرؤ واحد منهم على الكلام عما لاقوه هناك، لم يفهم حالة الصمت والإنهاك البادية عليهم من المرض وسوء

التغذية، ولم يكن يعرف أنهم اضطروا إلى قتل رجال القبائل المسلحين بالبنادق القديمة والمسدسات والخناجر بالأسلحة الثقيلة والمدفعية وبالطائرات أحياناً، كانوا يعانون نفسياً لمواجهة عرب مثلهم ولا يدركون مغزى قتالهم فى بلادهم، وأيضاً لرؤية جثث زملائهم الذين تعرضوا للقتل ليلاً بالخناجر وفصلت رءوسهم ومُثل بأجسادهم، فى أحيان كثيرة عند طلوع النهار يبحثون عن جندى الحراسة أو أى زميل لهم غائب عن الطابور، ليجدوه بعد ذلك جثة يحوم الذباب عليها، هذا إذا نجت من نهش الذئاب والتحول إلى بقايا من العظام واللحم بجانبها الرأس المفصولة والمفتوحة العينين فزعاً.

بصعوبة أدرك صابر بعد لقائه بطلعت وشيئاً فشيئاً الوجه الآخر للانتصارات المجيدة التى حققتها القوات المسلحة، وظن أن هناك خطأ ما لا يستطيع أن يحدده، فلا يمكن للقيادة أن تخطئ.. أبداً.

بعد أن ترقى إلى رتبة العريف وفرح بالشريطين، وظن أنه سيمضى ما تبقى له من فترة التجنيد فى مقر القيادة القريب من السويس، فوجئ بنقله إلى أحد الألوية المتجهة إلى سيناء، انزعج وتخوف من الأيام القادمة، فلم يكن يريد سوى أن ينتهى من فترة الجيش على خير ليعود إلى حياته الهادئة فى القرية، ويتسلم وظيفته فى المصنع ثم يتزوج ليقضى ليالى الريف الطويلة فى حضن امرأته التى لم يعرفها بعد، مستمتعاً بنعومة جسدها وتضاريسه التى كثيراً ما تلهب خياله الشاب، كانت أمه قد بدأت كعادة نساء الريف فى التجهيز لزواجه بمجرد وصوله إلى

الثامنة عشرة كما فعلت مع شقيقيه من قبل، لكن تجنيده فى الجيش حال بينها وبين ذلك.

الزواج فى نظر نساء الريف هو الهدف الأسمى للحياة، ومن أجله أنشأ الله الكون وخلق الأرض، الزواج والنكاح والإنجاب، بعد ذلك يهون أى شىء من مطالب الحياة، لم يكن لصابر برغم ما تحصل عليه من التعليم أن يخرج عن هذه المنظومة، بل إنها تلقى هوى فى نفسه ويتمنى أن تتحقق فى أقرب وقت، لكن الاختيار لم يكن قد وقع على فتاة بعينها بعد، أمه تحوم حول ثلاث أو أربع فتيات، تدرس جميع التفصيلات بعناية وتعاين الفتاة بدءاً من خصائصها الجسدية وقدرتها على أعمال البيت وإعداد الطعام إلى طبيعة شخصيتها، وغير ذلك من التفصيلات التى تتفنن فيها النساء، انتهاءً بأفراد أسرتها فرداً فرداً خاصة الحريم.

هذا الأمر يشغل حيزاً كبيراً فى تفكير صابر وهو فى الموقع البعيد، يمنى نفسه بالجسد الأنثوى وهو يتلوى فى قمصان النوم الحمراء، ويحلم باليوم الذى يتزوج فيه ويحقق أمنيته، لكنه لا يكاد يبذل جهداً فى ذلك، بل يترك لأمه أن تتخذ القرار وتختار له من تراها مناسبة له من بنات العزبة.

***

سيناء حسب معلوماته صحراء قاحلة لا زرع فيها ولا ماء، الحياة هناك خشنة قاسية ومملة أيضاً بلا أى وسيلة للترفيه، لا مقاهى ولا أسواق ولا شوارع ولا مدن أصلاً، تربط فيها القرد يقطع، بعد أن لبس ملابس الميدان بالشدة العسكرية ووضع على

رأسه الخوذة الحديدية الثقيلة، ركب فى صندوق اللورى الذى انطلق ضمن قافلة كبيرة على الطريق الموازى للقناة، ليتجه بعد ذلك إلى أحد المعابر، سار اللورى فوق المعبر العسكرى ببطء ومياه القناة تتأرجح من تحته ليصل أخيراً إلى أرض سيناء.

اندهش صابر لهذا الشعور الذى أحسه، لم يجد فى نفسه أثراً للوحشة والانقباض كما توقع، بل شعر بالراحة وأخذ يتطلع بشغف إلى الجبال الملونة التى يمرون بها وثمة إحساس بالطمأنينة يتسلل إليه، هو ابن الريف الذى نشأ بين الحقول ويحب رائحة الأرض المزروعة والخضرة، لا يجد نفسه غريباً فى هذه الأرض التى يزورها لأول مرة، يستنشق هواءها النقى ويملأ صدره به، وينظر إلى زملائه فيجدهم يتجولون بأبصارهم فى جبالها ووديانها التى تتناثر فيها الأشجار الصحراوية والابتسامة تعلو وجوههم، كانوا جميعاً يجدون نفس المشاعر.

****

الزورق المطاطى الذى يتسع بالكاد لعشرة أفراد، كان عليه أن يتحمل حمولة تزيد على الضعف ويمضى ببطء فوق الأمواج المضطربة وقد غاص حتى حافته فى الماء، نحو المركب التى تنتظر على بعد عدة كيلومترات فى عمق البحر.

فى نهاية كل زورق يقبع صبى من البدو عند المحرك، يقود الزورق نحو هدفه بهدوء وثبات أعصاب كأنه فى نزهة ليلية، لا يعبأ بالرياح التى تلفح جسده ولا بالموج الذى يصطدم بالزورق ويعلوه مغرقاً وجهه وملابسه، فى حين كان ركاب زورقه يرتجفون من البرد وقد التصقت ملابسهم المبتلة بأجسادهم، مما

جعل الرعشة تسيطر عليها وتهز أطرافهم بحركة لاإرادية سريعة لم تلبث أن شملت جميع أعضائهم حتى عضلات الوجه والفكين.

فى لحظة تبدل وضع الصبيان فى مؤخرة الزورقين، انتبه كل منهما ورفع رأسه ثم ضغط على المحرك ليعمل بأقصى طاقته ولف المقود بحركة سريعة مباغتة ليدور بالزورق فى اتجاه الشاطئ، قبل اكتمال الدورة كان صوت محركات لنشات خفر السواحل قد أصبح مسموعاً، وبغتة غمر ضوء كشافاتها القوى مكان الزورقين فكشف مساحة كبيرة من سطح البحر وأحال سوادها الحالك إلى نهار، أطبق الرعب على الشبان فتجمدوا فى جلستهم المضطربة داخل كل زورق، وأخذوا ينظرون بعيونهم التى أحرقها ملح البحر إلى مصدر الضوء الذى تسلط عليهم تارة، وإلى سطح الماء الأسود وهو يعكس أشعته تارة أخرى، وقع المفاجأة كان صادماً عنيفاً دهمهم بقسوة أفقدتهم صوابهم، وجعلت مخاوفهم السابقة من مخاطر الرحلة ومن الظلام والبحر تتحول إلى أمنيات، المركب التى تنتظرهم فى عرض البحر صارت بعيدة.. بعيدة، وأحلام السفر والخروج من حياة الفقر والظلم تهاوت، حتى الموت الذى لم يخشوا مواجهته وفضلوه على حياة البؤس التى كانوا يعيشونها، أصبح المصير الذى ينتظرهم أسوأ منه.. أسوأ من كل ما عانوه قبل ذلك؟!

راوغ كلٌ من الصبيين الأمواج بمهارة واندفع بزورقه الثقيل نحو الشاطئ الذى لم يبتعد عنه إلا بمسافة قصيرة، بينما اللنشات السريعة تضرب الماء خلفهما وتطاردهما بلا هوادة.

قبل أن يصل الزورق الأول إلى الشاطئ بمتر واحد، أطفأ سائقه الصبى محركه وتركه يندفع بسرعته نحو الرمال التى تلقفته بصدمة هائلة، جعلت عدداً من ركابه يتطايرون منه ويرتطمون بالأرض على بعد عدة أمتار.

- هيا.

قالها الصبى وهو يقفز من الزورق ويجرى كعفريت من الجن ويختفى فى لمح البصر عن الأنظار، ابتلعه الظلام فى ثوان.

لم يلبث الشبان أن أفاقوا من ذهولهم وشرعوا فى الجرى وهم غير مصدقين أنهم خرجوا من البحر ووصلوا إلى الشاطئ دون أن يُقبض عليهم، جروا بكل قوتهم فى نفس الاتجاه الذى سلكه سائق زورقهم وأصوات محركات اللنشات وصفارات إنذارها مازالت تدوى من خلفهم وكشافاتها تدور فى الفضاء لتملأ قلوبهم بالرعب، جاهدوا الرمل الرطب الذى يُثقل خطواتهم وقاوموا ما يعانوه من إرهاق ومن إحباط وخيبة أمل وهم يفرون بأنفسهم من شبح السجن، بعضهم كان يتعثر فى الرمال ويقع على الأرض فينهض بسرعة ليعاود الجرى بجنون وقد التصقت الرمال بملابسه الثقيلة المبتلة.

بعد دقائق من الجرى تغيرت طبيعة الأرض، وصلوا إلى منطقة كثبان رملية تعلو لعدة أمتار مكونة ربوة مرتفعة تنمو حولها شجيرات شوكيه بكثافة، اصطدم كثير منهم بها وداسوا بأقدامهم الحافية على الفروع المتساقطة المغطاة بالأشواك، لم يشعروا بالألم ولا بالدماء التى بدأت تقطر من جروحهم وهم يدورون حولها بحثاً عن ملجأ يختبئون فيه.

خلف الربوة وجدوا سيارات المهربين مازالت موجودة، وحولها يقف الرجال وهم فى حالة غضب بسبب فشل المحاولة، لكنهم ظلوا محتفظين بهدوء أعصابهم، أشاروا للشبان بركوب السيارة الميكروباص التى جاءوا فيها، بعد أن تراصوا بها تبينوا فيما بينهم غياب أربعة من زملائهم، لم يجرؤ أحدهم على مجرد الهمس ليسأل عن مصير الغائبين، كانوا قد أدركوا بما لا يدع مجالاً للشك أن ركاب الزورق الثانى قد قُبض عليهم.

6

ألقى صابر عقب السيجارة ونظر فى ساعته وزفر بنفاد صبر، لم يكن يعرف أن هناك مائة وعشرين ألف جندى يتم حشدهم فى سيناء، بدا له الزحام خانقاً، كان ضمن الدفعات الأولى التى دخلت سيناء وعسكرت فيها، تعود أن يسير على طريق خال بلا معوقات بسرعة لا تقل عن ثمانين كيلومتراً فى الساعة، لكنهم الآن يزحفون ببطء وسط حشود كثيفة، عشرات الدبابات تسير فى أسراب حولهم وأمامهم، تصاحبها العربات المدرعة والعربات التى تجر المدافع الثقيلة، بالإضافة إلى اللوارى الضخمة المكدسة بالجنود ولوارى الإمداد والتموين المحملة بمواد الإعاشة.

برغم المعاناة كانت هناك حالة من الفرح تسود الجميع، والشعور بالفخر والقوة يدفعهم للتغلب على أى صعوبات تواجههم، يتحركون صوب مواقعهم وقد غلب عليهم الحماس تشوقاً إلى النصر الآتى، جيشهم هو الأكبر والأقوى فى الشرق، يتخيلون شوارع تل أبيب التى سيدخلونها، واليهود وهم يفرون منها كالفئران، يحلمون بالشرف الذى سيطوق أعناقهم بعد تحرير فلسطين على أيديهم، كم هم سعداء الحظ لمشاركتهم فى هذه اللحظات المجيدة من التاريخ...

وسط معمعة الفرح هذه نظر صابر إلى بندقيته التى لا يجيد استعمالها بشىء من القلق، مرات معدودة تلك التى ذهب فيها إلى ميدان الرماية، تعرف على أجزاء البندقية من الصول لطفى بلدياته بشكل سريع ونظرى، وعند التنشين على اللوحات كان

يلقى لهم بتعليماته بعصبية ويسخر من عدم فهمهم لما لم يتعلموه، معظم طلقاتهم كانت تطيش ولا تصيب اللوحة.
- إنت يا عسكرى صابر مؤهلات، لكنك فلاح ومش نافع أبداً فى الجيش.
يكتم صابر ضيقه ويحاول أن يركز فى المحاولات التالية، لكن تظل إصاباته دون المستوى.
يجمع الصول لوحات النيشان الورقية الخالية ويتولى تخريم دائرة المنتصف السوداء بالقلم الرصاص وهو يضحك مستهزئاً من غباء العساكر وجهلهم، ثم يرفع النتيجة الممتازة التى حققتها كتيبته إلى الضابط الذى يرفعها بدوره إلى قائده، تتجمع النتائج حتى تصل فى النهاية إلى مكتب القائد العام للقوات المسلحة، فينظر فيها ويبتسم سعيداً بالمستوى التدريبى الذى تحقق للجنود تحت قيادته، ثم يبلغ القائد الأعلى أن الجيش على أهبة الاستعداد، وأن المستوى الذى بلغه الأفراد فى التدريبات يعد الأعلى على مستوى العالم وله أن يطمئن تماماً إلى قدرات القوات المسلحة على أداء المهام القتالية، كما أن تقارير المخابرات الحربية تؤكد أن العدو يرتعد رعباً من قواتنا وأنهم أصبحوا يخشون على دولتهم التى ستزول من الوجود عن قريب.
ينظر الرئيس إلى صديق عمره بأسى وتبدو علامات الحزن على وجهه المجهد، كان قد أوشك على عزله من منصبه مرتين ليسند القيادة إلى أحد العسكريين المحترفين الذين لم يشتركوا فى العمل السياسى مثلهما وظلوا متمسكين بثكناتهم وعملهم العسكرى، لكنه أحجم عن اتخاذ الخطوة الأخيرة خوفاً من شعبية

صديقه الجارفة بين الضباط خاصة الشبان منهم، كما أن وضع القائد العام فى قمة هرم الدولة الوظيفى يجعل هناك صعوبة كبيرة فى إيجاد وظيفة أخرى له، فهو برغم عدم كفاءته التى أصبحت ظاهرة للعيان وتوقف قدراته العسكرية عند حدود رتبته الصغيرة ليلة الانقلاب، يحب الجيش والعمل العسكرى ولا يطيق الابتعاد عنه إلى وظيفة مدنية مهما كانت، أما التفكير فى عزله وإبعاده عن شئون الدولة فأمر فى غاية الصعوبة أيضاً، فهما كفرسى الرهان كانا معاً منذ البداية، اشتركا فى نفس الحلم وسارا معاً على طريق طويل وشاق وصل بهما إلى قمة السلطة. التقارير التى ترفع إليه من أجهزة الدولة تخالف كلام القائد العام، الأوضاع ليست مطمئنة إلى هذا الحد الذى يعتقده، لكن على أية حال المجال العسكرى ليس هو المجال الوحيد للتعامل مع دولة اليهود الذين لايكفون عن إثارة المشاكل منذ أن وجدوا فى المنطقة، العمل على عدم الاستقرار ومنع الاستفادة من التنمية والثروات الطبيعية واستنزاف الاقتصاد بشكل مستمر هو عملهم الحقيقى وسبب وجودهم فيها، وللأسف يؤدون هذا العمل بكفاءة.. لكن بحار السياسة واسعة ومجالات المناورة فيها عميقة وأكبر من إمكاناتهم، فهم لا يملكون تعاطف معظم دول العالم، وهل هناك من يحب اليهود؟ ومصالح العالم الحقيقية معنا لا معهم، لن تسمح لهم القوى العظمى بضربنا أو الدخول معنا فى حرب كبيرة، لقد فعلوا ذلك من قبل بالفعل فى الحرب السابقة ومنعوهم من تنفيذ خططهم وسيمنعونهم هذه المرة أيضاً.. فى الحسابات الإستراتيجية، الجيش هو أحد وسائل المناورة السياسية، يكفى التهديد به وإظهار قوة تسليحه بالإضافة إلى

الميزة الأهم التى نملكها.. التعداد البشرى والقدرة على جمع عشرات الآلاف من الجنود وحشدهم للقتال، لا توجد دولة واحدة فى المنطقة بأسرها تمتلك هذه الميزة، ومجرد التلويح بهم والدفع بجموعهم الكبيرة ليسدوا عين العدو فى سيناء، يكفى لإثارة خوفهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم، لدىّ معلومات مؤكدة أنهم يستعدون للحرب، لكن هذه الحرب لن تزيد عن بضع عمليات أو اشتباكات عسكرية محدودة وربما طلعات طيران أيضاً لن تؤثر فينا بالمرة ونستطيع الرد عليهم بالحزم الكافى، فنحن دولة كبيرة بالطبع، لا تتأثر بضربات صغيرة من هذا النوع.. سأترك صديقى فى موقعه يدير هذه المسألة ويعيش فى أوهام المجد والقوة، لن يعجز على أى حال أن يدير هذه العمليات البسيطة ولديه من التسليح ما يكفى، فمهما حدث لن يستطيعوا أن يزحزحوا قواتنا عن مواقعها فى صحراء سيناء، لن أسمح لهم أن يسحبونا للحرب، فلدىّ مشاريع للنهوض بالبلد وتنمية اقتصادها، مصانع وتعمير ورقعة زراعية لابد أن تزيد، سأتركهم يبدأون لعبة النار، ثم أفضحهم أمام العالم وأحاصرهم فى ملاعب السياسة وأكشف خبثهم ونواياهم العدوانية وأنهم ليسوا ضحايا ولا مسالمين كما يدعون حتى تسقط حججهم ويفقدوا أى شرعية لهم فى الوجود على أرضنا العربية فى فلسطين.

***

استقرت قوة اللواء فى الموقع المحدد لها وقام الجنود بحفر ملاجئ الإقامة لهم ولضباطهم، وغطوها بشبكة من السلك المعدنى ووضعوا القماش الكاكى السميك فوق الشبكة، ونقلوا

مهماتهم إليها حتى أصبحت الملاجئ جاهزة لإقامتهم، ثم شرعوا فى تحصين الموقع وتوزيع نقاط الحراسة وتأمين المنطقة التى تمركزوا فيها، ولم يكادوا يستقروا حتى جاءهم أمر بالتحرك إلى موقع آخر يبعد حوالى ثلاثين كيلو متراً..؟!!

برغم الإجهاد ومشقة الصحراء وشمسها الساطعة التى أخذت تزداد سخونة مع تقدم الصيف، كان الجميع يؤدون عملهم بمعنويات مرتفعة وبروح قتالية عالية، والأمل الجميل بدخول فلسطين وتحريرها يداعبهم، تهون كل الصعاب فى سبيل النصر القادم.

طلعت أشد الجنود حماسة، زايله الجفاء الذى عاد به من اليمن، هذه المرة سيحارب الأعداء الحقيقيين، ينظر إلى حركة وحدات الجيش بأسلحتها الثقيلة، المدرعات والمدفعية، وهى تنتشر وتتمركز حولهم وعلى مقربة منهم، ويشعر بأن هذه القوى الجبارة تضاف إلى قوته، فتملأه زهواً وكبرياءً، مازال يذكر اليهود فى الإسكندرية ويستطيع تمييز سحنتهم، يختلفون عن بقية البشر فى كل شئ وهم جميعاً خبثاء وجبناء، بحيث أنه لا يفهم كيف أن قوماً كهؤلاء استطاعوا التغلب على أولاد العرب جميعهم، وأقاموا دولة لهم فى فلسطين بالغصب ولى الذراع، كأن العرب ليس فيهم رجال، لكن الرئيس الله يبارك له لم يسكت لهم، طردهم من مصر وسيطردهم من فلسطين فى القريب العاجل، هذه المرة سيلاقون ما يستحقونه، علىّ الطلاق ما أنا راجع قبل ما أدخل فلسطين - طلعت لم يتزوج بعد - وأعرفهم أن مصر فيها رجالة غصباً عنهم وعن عينيهم، ولا إيه يا

صابر؟ رأيك إيه؟ إنت متعلم وتفهم أكثر منى، أنا بفك الخط بالعافية.

- قول يا رب، أملنا فى ربنا كبير أنه ينصرنا عليهم.

رد صابر وهو يغالب النعاس.

- ونِعمَ بالله؟

الليل البهيم أطبق بظلامه على الموقع، وكل منهما جالس بملابس الحرب يحتسى الشاى فى كوبه المعدنى ويدخن سيجارة، وقد نال منهما التعب لشدة المجهود الذى بذلاه طوال النهار، زملاؤهم من الجنود كانوا يتساقطون من شدة الإجهاد وسرعان ما غطوا فى النوم وبقى جنود الحراسة وحدهم متيقظين.

قبل أن يخلدا للنوم قال طلعت.

- عارف يا صابر، عندما كنا فى اليمن، كنت زعلان لأننا بنضرب ناس غلابة وعرب مثلنا، لكن الآن نفسى أحارب هؤلاء الإسرائيليين، على الأقل لو مت سوف أصبح شهيداً وأدخل جنة ربنا، إنما هناك لم أكن متأكداً، حسيت إننا نفترى عليهم، صحيح كان هناك من أهل اليمن من يقفون فى صفنا ويضربون إخوانهم، لكن المشكلة أنهم إخوة وبينهم خلافات، ألم يكن من الأحسن أن نساعدهم ونصلح بينهم ونحل المشكلة بالسياسة بدل الضرب، أنا تعلمت لثالثة ابتدائى وبعد ذلك خرجت أشتغل، لكن أعرف كويس جداً أن الذى يفترى على الغلبان لا يكسب أبداً، ولازم ربنا ينتقم منه، كنت خايف من ربنا وأنا هناك.. لكن الحمد لله، أيام وراحت.

***

فى الثامنة صباحاً والجميع منشغلون فى أداء أعمالهم الصباحية مرت فوق رءوسهم أسراب متتالية من الطائرات، مرت على ارتفاع منخفض وبسرعة مخيفة، تشكيلات كثيفة قادمة من اتجاه الشرق، غطت وجه السماء لمدة نصف ساعة.

مرور الطائرة النفاثة المقاتلة على ارتفاع منخفض يصدر دوياً يصم الأذان ويخلع القلب، لم يكن هناك شك أن الحرب بدأت وأن العدو يهاجم بضراوة، جرى كل رجل إلى مكانه وسط حالة من الهلع متوقعاً أن القذائف ستنهال على موقعهم بين لحظة وأخرى، لكن جميع الطائرات مرت دون أن تهاجم، ثم سمعوا صوت القصف وهو يأتى من بعيد وتلاه صوت انفجارات متفرقة، كانت الطائرات تضرب المطارات الموجودة فى سيناء، لمحوا على مبعدة عدداً منها وهى تعود من حيث أتت بعد أن نفذت العمليات الخاصة بها.

تجمد الرجال فى أماكنهم منتظرين الأوامر، مرت اللحظات ثقيلة وقد أطبق الصمت على الصحراء التى عاد لها هدوؤها، التقط الجميع أنفاسهم وعادت الطمأنينة لتهدئ من روعهم بعض الشىء، لدينا مدفعية مضادة للطائرات لابد أنها تتعامل الآن مع طائرات العدو، مؤكد أن الكثير منها قد سقط بالفعل.

أخذ الجنود والضباط يمسحون السماء بأعينهم على أمل أن تظهر طائراتنا فى الجو، أين تدور المعارك الجوية الآن؟ وإلى أى مدى وصلت طائرات العدو التى يبدو أنها توغلت بعيداً، فى أى منطقة تصدت طائراتنا لهم؟ لا يمكن أن يتركوهم ليصلوا إلى المدن، الإسكندرية، القاهرة، ومدن القناة الثلاث...

وسط ترقب جميع الرجال ولهفتهم حاول القائد أن يتصل بالقيادة ليتلقى التعليمات، لكنه وجد التليفونات معطلة، كانت قوات الكوماندوز المعادية قد قطعت الكابل الرئيسى فى الصباح الباكر، فاستخدم التليفون الهوائى واتصل بقيادات الفرق والألوية القريبة، فوجد أنهم جميعاً لا يعرفون وليست لديهم تعليمات، وأن خطوط اتصالهم مع القيادة معطلة أيضاً!!

بدا منظر طائرات العدو وهى تعود محزناً، انقبضت له الصدور، كانت تحلق على ارتفاعات عالية، وبدا واضحاً أنها سليمة كاملة التشكيلات، أسرابها تطير عائدة بسلام فى سماء مفتوحة، لم يبد فى الأفق ما يدل على أنها لقيت أى مقاومة أو أن هناك من يطاردها، مما أثار استغراب الضباط وضيقهم، وتساءلوا متحيرين عن سلاح الطيران والدفاع الجوى.. أين هو؟ ولماذا لم يشتبك مع هؤلاء الكلاب الذين اخترقوا مجالنا الجوى!!

لم يكن لدى القوات الكثيفة الرابضة فى سيناء مدافع مضادة للطائرات فضلاً عن الصواريخ، لذلك لم يكن غريباً أن يعود الطيران بعد ساعة تقريباً فى تشكيلات خفيفة كأنها طلعات تدريبية، لتضرب جسد عملاق بالغ القوة أصابه الشلل فرقد كسيحاً ولم يعد قادراً على رفع يد أو رجل ليهش بها جرذان تتلذذ بعضّه ونهش لحمه.

سبع دقائق استغرقتها الغارة الجوية تركت قوة اللواء أشلاءً، الضرر الأكبر أصاب كتيبة الدبابات المصاحبة له، لم يبق سوى نصف الدبابات، تحطمت بعض عربات النقل، أما الجنود والضباط الباقون على قيد الحياة فقد روعوا بمنظر زملائهم القتلى والجرحى.

دقائق الغارة مثلت فارقاً بين حياة وحياة، لحظاتها الطويلة مرت وكل إنسان لا يدرى ما مصيره فى الثانية القادمة، تنشد الأعصاب إلى درجة التشنج، تنقبض أصابع الكفين بكل قوتها وتتكور فى قبضة عصبية مرتعشة، تكاد الضروس والأسنان أن تتحطم من شدة ضغط الفكين عليها، يبذل الجسد كل ما بوسعه ليتشبث بالحياة، تُغمض العينان لا إرادياً، ليس فقط لأنها تخشى ذرات الرمال والشظايا المتطايرة، ولكن لأنها لا تريد أن ترى الموت القادم جهرة.

نظر طلعت بعد انتهاء الغارة فرأى صابراً وقد غطت الدماء وجهه وصدره، فصرخ يناديه، لكن صابر الذى كان صفير القصف والانفجارات مازال يطن فى أذنيه لم يسمع، وقف يتحسس جسده بحركة هستيرية ليتبين موضع إصابته، فلم يكن يشعر بأى ألم سوى الدوار والصداع العنيف، استغرق الأمر بضع لحظات ليعرف أن الدماء التى تغطيه هى دماء أحد زملائهم الذى كان فى تلك اللحظة راقداً على بعد خطوة واحدة منه ينازع الموت.

***

تم دفن الشهداء ونُقل الجرحى بمساعدة زملائهم إلى خيمة الإسعاف، حيث أجريت لهم الإسعافات الميدانية قدر المستطاع، وأسرع الضباط الفنيون باستدعاء أطقم الصيانة من صف الضباط لإصلاح الدبابات والعربات القابلة للإصلاح، بينما تحرك قائد اللواء متنقلاً بين كتائبه ووحداته يعاينها ويشرف بنفسه على تنظيم العمل محاولاً إعادة التماسك إلى قواته التى أصيبت بأضرار بالغة، لم تلبث روح الإصرار أن هبت فى

نفوس الجنود فبذلوا ما بوسعهم لتنفيذ أوامر قائدهم، الذى كان يريد أن يتحرك بما تبقى من قواته بأسرع ما يمكنه نحو جبل قريب ليتحصن فى سفحه من طائرات العدو.

مع آخر ضوء تحرك قائد اللواء بقواته عدة كيلومترات نحو سفح الجبل وتمركز فيه، من البداية كان يرى أن هذا المكان أفضل، اعتقد أنه سيبقى فى هذا الموضع أياماً طويلة وربما شهوراً مدافعاً عن الأرض وحامياً لها.

فى صباح اليوم التالى حلقت الطائرات لكنها عجزت عن القصف، اختار قائد اللواء موقعاً لا يسمح لهم بالهجوم خشية الاصطدام بالجبل، ارتفعت معنويات الجنود وظنوا أن بإمكانهم مواصلة القتال والدفاع عن الأرض عندما ترسل لهم القيادة الدعم اللازم لتعويض خسائرهم، كانوا حتى تلك اللحظة يثقون أن الرئيس قادر على التصرف وعلى إدارة الحرب واستعادة زمام الأمور.

بذل قائد اللواء مجهوداً كبيراً فى محاولة الاتصال بالقيادة عبر التليفون اللاسلكى دون جدوى، وبصعوبة استطاع التحدث مع قادة القوات القريبة منه، أخبره أحدهم عن سماعه بصدور أمر بالانسحاب إلى الضفة الغربية للقناة، لكنه غير متأكد بعد.

صُدم وثار وصرخ فى محدثه الأحدث منه فى ترتيب الأقدمية برغم تساويهما فى الرتبة.

- إيه.. انسحاب ليه، إحنا نقدر نقاوم على الأرض.

- هذا ما وصلنى يا فندم بشكل غير مباشر.

- كيف يعنى؟

- أبلغنى ضابط من الشرطة العسكرية يا فندم، سمع الأمر من مكتب مخابرات الإسماعيلية.
- لو صدر هذا الأمر، لابد أن يكون هناك خطة للانسحاب، لازم نعرف مراحل التحرك والخطوط الدفاعية التى سوف نتجه إليها، ويتم إبلاغنا بكل مرحلة.
- عارف طبعاً يافندم، لكن الظاهر حتى الآن عدم وجود خطة.
- لو شاع هذا الخبر، فإن العساكر والضباط سوف يتشردون فى الصحراء، وسنفقد كل معداتنا وأسلحتنا، أنا لن أتحرك خطوة واحدة حتى أتأكد. ثم أضاف محذراً زميله فى محاولة أخيرة لمنع الانهيار الموشك.
- طبعاً إنت عارف إن الانسحاب من المعركة بدون أمر صريح ومؤكد معناه الإعدام.
لم يستطع القائد الآخر أن يمنع نفسه من الضيق، وبالطبع كان يعانى هو أيضاً ولديه من المشاكل ما يكفيه، فرد بزهق.
- عارف يا فندم.
وضع قائد اللواء السماعة وهو يزفر غيظاً، أشعل سيجارة ودخنها بعصبية ورغماً عنه امتلأت عينيه بالدموع من شدة القهر، يدرك تماماً بخبرته التى تمتد لنحو عشرين عاماً أن القوات المنتشرة فى سيناء تستطيع الصمود لشهور طويلة، بل إن بمقدورها أن تقاتل وتنتصر لو توفرت لها قيادة تمتلك الكفاءة..؟! تذكر بأسى زملاءه الذين انضموا لتنظيم الضباط السرى، ورفضه الاشتراك معهم وهو بعد ما يزال ضابطاً شاباً حديث الرتبة فى ليلة الانقلاب التى حاصروا فيها قصر الملك، كان الخيار واضحاً أمامه وأعلنه صراحة بلا مواربة، أنا رجل

عسكرى ولا شأن لى بالسياسة، سلاحى موّجه للدفاع عن الوطن لا غير.
هؤلاء الزملاء منهم من تخرج معه فى نفس الدفعة ومنهم الأقدم والأحدث رتبة منه، كلهم استطاعوا الصعود بسرعة إلى وظائف الدولة العليا، إنهم يجلسون الآن فى مقاعدهم السياسية يديرون أمور البلد.. يعرف أن معظمهم يمتازون بالتهور والاندفاع الذى لا يخلو من طيش، وإلا لما استطاعوا القيام بهذا العمل المجنون الذى كان فى أغلب الظن سيقودهم إلى الموت إعداماً بتهمة الخيانة العظمى، لولا حسن الحظ العجيب الذى صادفهم تلك الليلة على عكس كل التوقعات والحسابات المنطقية التى تؤكد أن حركة تمرد كتلك مقضى عليها بالفشل الذريع!
لو أن نية القيادة اتجهت الآن إلى الانسحاب، فإن استعادة السيطرة على هذه الأرض سوف يصبح فى غاية الصعوبة، اليهود لن يتركوا هذه الأرض خلاء، سوف يتقدمون بقواتهم البرية ويحتلونها، لقد حاربهم من قبل مرتين ويفهم عقليتهم العسكرية، إنهم لا يستطيعون الاستمرار فى الحرب لفترة طويلة، فهذا يرهق اقتصادهم ويوقف حركة مجتمعهم إلى حد الشلل، معظم جنودهم وضباطهم فى الاحتياط واستدعاؤهم للحرب يعطل أعمالهم الوظيفية والمدنية عموماً، أما مصر فبمقدورها أن تحارب لشهور وتستطيع أن تتحمل ميزانية الحرب وتعبئة الجنود دون أن تكل.
دخل أحد ضباط أركان اللواء مسرعاً فقطع على القائد أفكاره قائلاً.
- طائرة هليوكوبتر معادية تقترب من موقعنا يا فندم.

- تعامل معها فى الحال، اضربوها.
- تمام يا فندم.
خرج القائد من خيمته وتابع الموقف، فى الأفق بدت الهليوكوبتر وهى تتسكع ببطء، وبدا واضحاً أنهم يستطلعون المواقع عن قرب وباطمئنان مستفز، لكن وابل النيران المركز الذى قوبلت به من جنود يملأهم الغضب ويسعون لرد الاعتبار لشرفهم العسكرى الذى تعرض للإهانة، جعلها تنفجر فى الجو قبل أن تسقط متهاوية.
هلل الجنود وكبروا، وكل رجل منهم تمنى لو تتاح له الفرصة للقتال وخوض الحرب ضد هؤلاء الكلاب، لكن أمر الانسحاب المتسرع غير المدروس الذى أصدره قائد أرعن لم يستحق يوماً شرف القيادة العامة التى يتولاها ولا الرتبة الرفيعة التى يضعها بغير استحقاق على كتفيه، كان يسرى كالسم بين الجنود والضباط ويحدث تأثيره المدمر فى نفوسهم.
عندما أتى الليل كان خبر الانسحاب قد بلغ الجميع، وهو أمر صدر شفاهة كأنه نطق سامٍ بغير ورق مكتوب ولا تصديق ولا إمضاء، كما تقتضى القوانين واللوائح العسكرية، وأيضاً بغير خطة لتأمين الأفراد والأسلحة أثناء التحرك الذى لابد أن يتم على طرق محددة على الخرائط وفق جداول زمنية، بحيث لا تتعارض تحركات القوات مع بعضها البعض، كما توضع خطة موازية لإمداد هذه القوات بالأغذية والماء أثناء وجودها فى مراكز التجمع، فهؤلاء الجنود هم فى نهاية الأمر بشر أيضاً ويحتاجون إلى الطعام والشراب، وهو ما لم يخطر ببال القائد العام، عندما أبلغ أمره بالانسحاب بالأسلحة الشخصية فقط إلى

بعض القادة ممن تمكن بالاتصال بهم من غرفة قيادته البعيدة مئات الكيلومترات عن أرض المعركة.
البعض من هؤلاء القادة ـ تم عزلهم ومحاكمتهم بعد ذلك ـ نفذ الأمر فوراً، ورجع بضباط قيادته وترك جنوده وصغار الضباط يتصرفون كيفما شاءوا فى تنفيذ الانسحاب بالأسلحة الشخصية فقط، وبلا ماء، ولا طعام عبر صحراء شاسعة، تاركين خلفهم معدات وأسلحة وذخائر حصلت عليها بلدهم بصفقات سياسية باهظة بعد صراع طويل خرجت منه بعداوات عميقة مع الكثير من دول العالم، ودفعت أثمانها خصماً من رخائها، وعلى حساب أفراد شعبها الذى اضطرت حكومته لتأجيل أو إلغاء مشروعات إنشاء وصيانة العديد من مرافق الدولة والخدمات العامة، المواصلات، والطرق، والكهرباء، ومياه الشرب، والصرف، والتليفونات... من أجل الحصول على هذا السلاح الذى يُترك الآن.
جلس قائد اللواء وتوضأ بأقل كمية ممكنة من الماء، لم يرد أن يتيمم للصلاة كما هو معتاد، شعر باحتياجه للماء ليمسح به على بشرته ووجهه ويصلى صلاته الأخيرة قبل أن يبدأ الانسحاب المشئوم بكتائبه وسراياه، كان قد وضع مع ضباط قيادته خطة انسحابه الخاصة التى تضمن الرجوع بكامل المعدات التى نجت من الغارة وتدمير الدبابات والعربات المعطلة حتى لا يتمكن العدو من إصلاحها والاستفادة منها بعد ذلك.
انسالت دموعه بمجرد دخوله فى الصلاة، ولم يلبث أن بكى عند سجوده وملامسة جبهته للأرض من شدة شعوره بالغيظ والإهانة، بكاء رجل لحق به عار الهزيمة وتعرض للغدر

والخيانة وتلطخ شرفه العسكرى دون أى ذنب أو تقصير، ودون أن يرتكب خطأ واحداً، رجل يعرف معنى الرجولة ويرى الموت أحب إلى نفسه من تهمة الجبن والتخاذل، رجل يعرف حجم الكارثة التى أرغم على المشاركة فيها إرغاماً لا يملك أمامه إلا الإذعان.

بدأت قوات اللواء فى التحرك ليلاً، وجميع العربات مطفأة الأنوار تحاشياً للطائرات المغيرة، ساروا ببطء حذر خارجين إلى الأرض الوعرة المنبسطة أمامهم، الأرض التى سار عليها أنبياء الله ليدخلوا منها مصر آمنين.

عندما بدأت خيوط الشمس الحزينة تتسلل عبر الأفق لتبدد وحشة الليل، كانت القافلة قد خرجت من منطقة العمق، لكن الشوط مازال طويلاً حتى بلوغ القناة، على مرمى البصر تبدت عشرات من قطع السلاح والمعدات وقد تناثرت عشوائياً، دبابات وعربات مدرعة ولوريات، بعضها جديد ومن أحدث ما أنتجته مصانع السلاح الروسية، لكن نفاد الوقود لانقطاع خطوط الإمداد والتموين وسط حالة الفوضى التى أحدثها أمر القائد العام جعل أفراد الأطقم الخاصة بها تتركها، وهناك التى تعطلت لسوء الصيانة أو انعدامها وخزاناتها ممتلئة بالوقود فتركت أيضاً، بينما كان الجنود يسيرون فرادى وجماعات، على غير هدى، وقد تملك أغلبهم الرعب خوفاً من الموت عطشاً فى الصحراء.

***

كانت جماعات البدو التى تعيش فى سيناء قد روعتها هذه الجحافل العسكرية التى انتشرت فى صحاريهم وجبالهم على حين غرة، بعد قرون عاشوا خلالها فى عالمهم البعيد عن

العمران إلا من الطريق وخط السكة الحديد الذى يمر فى الشمال ويصل إلى مدينة العريش حيث توجد على استحياء بعض مرافق الدولة، أما بقية المساحة الشاسعة التى تمثلها شبه الجزيرة فإن الحكومات المتعاقبة دأبت على تجاهلها والتعامل معها كبعد إستراتيجى بلا سكان، فالبدو فى نظرهم لا يحتاجون إلى مدارس أو مستشفيات أو إدارات حكومية!!

مع بدء الحرب وغارات الطائرات وتجولها فى سمائهم المفتوحة، تحتم على قبائل سيناء أن تودع عالمها القديم إلى الأبد لتصبح جزءاً من الحرب القادمة والصراع الدائر بلا هوادة فى الصحراء التى يعيشون فيها، صعُب عليهم فى البداية تصديق أن الجنود الذين جاءوا من مصر مدججين بالسلاح فى حشود هائلة منذ شهور قليلة قد تحولوا فى يوم واحد إلى مشردين هائمين على وجوههم فى الصحراء، كانوا بطبيعتهم الصحراوية يتوجسون من العسكر ويبتعدون عن معسكراتهم وأماكن تجمعهم، ويرقبونهم فى صمت من خلف الجبال والهضاب وكثبان الرمال ودروب الصحراء التى يحفظونها كما يحفظ ابن المدينة شوارع مدينته.

كان من المستحيل على الجنود البسطاء أن يعرفوا طريقهم إلى القناة وسط جغرافية سيناء المعقدة بجبالها ووديانها وصحرائها الجافة المليئة بالثعابين والعقارب، الضباط المتمرسون كانوا يعتمدون على الخرائط وأجهزة البوصلة وعلى معرفتهم بالنجوم وبجغرافية السماء؛ ليشقوا طريقهم بلا صعوبات نحو أى اتجاه يريدونه، أما الجنود فقد تخبطوا ولم يلبث معظمهم أن تاه وفقد الاتجاه ودخل فى مضارب البدو.

استقبل رجال البدو هؤلاء الجنود وهم فى حيرة من أمرهم، لم تكن لهم سابق خبرة بالتعامل مع أمر كهذا، فى البدء نظروا إليهم على أنهم عسكر يحملون البنادق والرشاشات، لكنهم وبسرعة أدركوا حقيقة لم يكن من الصعب تبينها، أن أولئك العسكر ليسوا إلا فلاحين بسطاء لا يعرفون هم أنفسهم ماذا جرى لهم ولا كيف أصبحوا هكذا فجأة فى العراء؟ وقد تهرأت أحذيتهم من المشى الطويل على أرض تتناثر عليها الصخور الحادة والنباتات الصحراوية ذات الأشواك، عطشى منهكون من شدة الجوع والإرهاق، بعضهم جرحى وقد جفت الدماء على ملابسه المتربة المبللة بالعرق.

بالنسبة إلى الرجل البدوى الذى عاش عمره على الفطرة لا تصله صحف ولا محطات الإذاعية، فى صحراء فسيحة يتنقل فيها كيفما شاء ليرعى قطعانه من الجمال والماعز، ونشأ على حماية أرضه وعرضه وكرامته التى لا يرضى لها أن تمس، ولا يتردد لحظة فى القتال حتى الموت دفاعاً عنها، والموت هنا ليس مجرد كلمة تقال ولا هى صيغة مبالغة لغوية بل تعنى الموت حرفياً بمعناه الحقيقى لا المجازى، كما أن هذا الرجل لا يدرك مدى تعقيدات النظام العسكرى الذى يحكم الجيوش ويسيطر على تحركات معداتها وأفرادها، لذلك لم يكن غريباً أن ينظر إلى الجنود على أنهم جبناء فارين من أرض المعركة، ولم يكن صعباً عليه أن يعرف من خبرته بالمنطقة أن اليهود سوف يأتون من مكمنهم القريب ليدخلوا بلادهم، وأنهم سوف يواجهون الاحتلال الصهيونى بدون أى دعم أو مساندة من الحكومة البعيدة عنهم من الأصل.

لكنهم وبرغم ما عانوه من اضطرابات وقلقلة لحياتهم بسبب دخول الجيش وتحركه فى سيناء، قدموا ما يقدرون عليه من مساعدة للجنود والضباط، الماء والطعام، ووفروا لهم أماكن يريحون فيها أجسادهم ثم دلوهم على الطريق بعد ذلك، كان بعض الجنود خاصة من الجرحى والذين أصابهم الإعياء وعاينوا الموت فى الغارات وشاهدوا زملاءهم وهم يموتون والذين امتلأت قلوبهم بالنقمة على ما حدث لهم، يتركون بنادقهم لرجال البدو أو يهدونها لهم ليتخففوا من ثقلها، وهم يجرون أرجلهم عبر الطريق القاحل الطويل إلى القناة، هانت عليهم بعد أن رأوا قادتهم يتخلون عن مواقعهم تاركين فيها الدبابات والمدافع واللوريات والمعدات.

***

توقف قائد اللواء ليسمح لجنوده بالراحة من مشقة السير، كانت طائرات العدو قد بدأت تجوب السماء مع بداية النهار، وقد بات مؤكداً أنها لا تلقى أى اعتراض، كان يتوقع أن طائراتنا سوف تجمع شتاتها بعد تعرضها للهجمة الأولى ثم تعاود الظهور للتعامل مع العدو جواً وتنشر مظلة الحماية فوق القوات البرية، لم يتصور حتى تلك اللحظة أن السلاح الجوى قد تم تدميره على الأرض وأنه ببساطة لم يعد موجوداً؟!!

أمر جنوده بسحب الوقود من خزانات الدبابات والعربات المتناثرة معطلة على جوانب الطريق، أمامه مسيرة عشرين كيلومتراً حتى يصل إلى منطقة آمنة فى سفح أحد الجبال، لكنه ما إن بدأ المسير حتى تعرض لهجوم آخر من الطائرات المعادية، سبع دقائق أخرى تحمل كل ثانية منها الموت.

نهض الجنود من الأرض بعد انتهاء الغارة، دفنوا شهداءهم بسرعة وتركوا خلفهم بعض الدبابات والعربات التى دُمرت ثم عاودوا المسير، يصحبهم الكثير من الجنود والضباط الشبان الذين انضموا إليهم أثناء العودة، كان هؤلاء الجنود والصف ضباط والضباط الصغار يهرولون من كل صوب بمجرد سماعهم لصوت المحركات ورؤيتهم للقافلة، يصيحون ويلوحون بأيديهم وهم يندفعون ناحيتها، وجنود اللواء يمدون أيديهم لينتشلوهم من الأرض التى أكلت أحذيتهم، ويفسحون لهم مكاناً فى الشاحنات وعلى أسطح الدبابات التى أخذوا يعتلونها حتى تغطت بهم، فبعد ضياع الكثير من اللوارى والعربات لم يكن هناك بد من استخدام الدبابات التى لم تقاتل ولم تطلق طلقة واحدة كناقلات جنود.

مد صابر يده لضابط شاب فروعه منظر الجرح الذى يشق ذراعه، كان جزءٌ من عظم المعصم مكشوفاً وقد تدلى لحم الذراع على جانبيه، بدا الضابط متماسكاً متحاملاً على نفسه، لكنه ما إن جلس وهدأ جسده من المشى حتى بدأ يرتعد رغماً عنه.

عندما سكنت قوات اللواء حضن الجبل قبل الظهيرة، كانت أنات الجرحى الذين لم يتلقوا أى علاج بعد قد بدأت تتعالى ونوبات الحمى تهاجمهم، بذل الطبيب ومساعدوه بما لديهم من أدوية الإسعافات الأولية ما فى وسعهم ليخففوا من آلامهم، بعضهم كان فى حاجة إلى جراحة عاجلة، لكن لم يكن أمامهم إلا انتظار ساعات النهار الحارة الطويلة حتى تمر ليبدأوا معاودة السير فى الليل الآمن.

مع قدوم الليل تحركت القافلة، كان أمامهم كما قدر القائد من سبع إلى ثمانى ساعات حتى يصلوا إلى المعبر رقم ستة بالإسماعيلية، لكن المعلومات جاءته بأن هذا المعبر قد تم تدميره فتحول إلى أحد المعابر الأخرى مما زاد المسافة لنحو الساعتين.
فى هذه الأثناء وعلى خطوات العودة المنكسرة المجللة بترانيم الخزى، كان صناع الأغانى من الشعراء والموسيقيين قد بدأوا تحت تأثير صدمة الهزيمة التى لم تخطر على البال ولا تصورها أحد، فى تأليف أغانى الرثاء الحزينة، كرد فعل تلقائى جمع ما بين الحزن والغضب، وسجل هذه اللحظات لتبقى فى الذاكرة لسنوات كثيرة.

عدى النهار
والمغربية جايه
تتخفى ورا ضهر الشجر
وعشان نتوه فى السكة
شالت من ليالينا القمر.

***

يا محلى رجعة ضباطنا من خط النار
يا مصر يا محمية بالحرامية
الفول كثير والطعمية
والبر عمار
إيه يعنى فى العقبة جرينا
ولا فـ سينا
هى الهزيمة تنسينا إننا أحرار
الحمد لله ولا حولا

مصر الدولة
غرقانه فى الكذب علاوله
والشعب احتار.

***

أصبح عندى الآن بندقية
إلى فلسطين خذونى معكم
إلى ربىَ حزينة كوجه المجدلية
إلى القباب الخضراء
والحجارة النبية
إلى فلسطين خذونى معكم أيها الرجال
أريد أن أعيش أو أموت كالرجال.

كانت أحلام جيل بأكمله قد انهارت، وضاعت معها كل الطموحات والآمال فى مستقبل ظنوا لأعوام أنه سيحمل لهم الرخاء والكرامة! نزلت ضربة المعول الأولى التى ستتوالى بعدها الضربات لتهدم صرح الدولة المصرية الحديثة التى بدأ تأسيسها على يد محمد على باشا، وخرج بها من القرون الوسطى إلى المدنية التى ازدهرت حتى نافست الكثير من دول أوروبا وتفوقت على بعضها!
رجوع فلول الجيش إلى نهاية الضفة الشرقية لسيناء، صنع شرخاً فى قلب الوطن، وبدل طبائع الأمور، وغير ثوابت فى النفس ظن الناس أنها راسخة كالجبال، بدأ زمن التراجع والهبوط فى مد أول خيوطه السوداء لتخنق أعناق المصريين.

***

فى الخامسة صباحاً لاحت مياه القناة أخيراً وهى تلمع فى ظلمة الليل تحت تأثير إضاءة الفجر الباهتة.
نظر إليها القائد بغيظ وهو يصل إلى بداية المعبر أخيراً، كلفت تلك القناة مصر الكثير، وجرت عليها من المصائب والحروب والاستعمار الإنجليزى والتدخل الفرنسى والأوربى والغربى عموماً ما فاق أى ربح جنته منها.
نزل صابر وخلفه طلعت من اللورى، وكل منهما يحمل بندقيته التى لم يستعملها وقد علاهما الغبار والعرق وتلطخت ملابسهما بدماء زملائهما.
نظر كل منهما إلى الضفة الشرقية بحسرة، ثم مضيا وسط حشود الجنود العائدين، كان على كلٍّ منهما أن يؤجل مشاريع حياته ليبقى رهن الجيش لسنوات شاقة قادمة حتى يتمكنا من العودة إلى سيناء وتحريرها.
تلقى صابر استقبالاً حافلاً عند عودته إلى العزبة فى إجازته الأولى، كأنه عائد من الموت، كان هناك عددٌ من الشبان من أبناء الناحية قد فُقدوا ولم يُعرف مصيرهم بعد، وأخرون تلقت أسرهم نبأ استشهادهم مما جعل جواً من الحزن يسود الأهالى.
أبناء عبد الواحد وأحفاده الذين تحولوا إلى قبيلة صغيرة تجمعوا فى البيت للترحيب بالأخ والعم والخال العائد، الأم برغم فرحتها بنجاة ابنها وعودته سالماً لم تستطع أن تخفى جزعها على مصيره، أدركت أن الخطر مازال جاثماً على حياته، فلم تعد فترة التجنيد فترة عابرة ومجرد أيام تمر بسلام فى معسكرات

الجيش، جعلتها الحرب كابوساً يطارد الجميع، والأصعب أنه سيستمر لسنوات لا يعلمها إلا الله.

7

برغم ما حدث فإن المهربين لم يتراجعوا عن تنفيذ خطتهم لتسفير بقية الشبان، لديهم اتفاقيات كلفتهم أموالاً مع المراكب محددة بمواقيت لا يمكن تأجيلها، كما أن استمرار وجود الشبان لديهم يكلفهم المزيد من المال ويعطلهم عن استقبال دفعة جديدة من راغبى السفر، وهم فى جميع الأحوال لا يعرفون الخوف ولا يتراجعون عن المضى فى أعمالهم المشروعة وغير المشروعة، مهما كانت الخسائر التى يتعرضون لها بسبب مواجهتهم الدائمة مع قوات الشرطة وقوانين الدول التى يعيشون فيها.

التهريب عبر الحدود عملهم الأساسى ومصدر رزقهم الرئيسى، يقومون بتهريب كل ما له قيمة من السلع الممنوعة بالإضافة إلى المخدرات والأسلحة خلال الصحراء والمناطق البرية المفتوحة، التى يعرفون جبالها ووديانها وطرقها ودروبها ومخابئها وممراتها الوعرة، كما يعرف ابن المدينة شوارع وميادين وأحياء مدينته.

تجهز الفوج الثانى للسفر بعد يومين من المحاولة الفاشلة لتسفير الفوج الأول، استعد جلال وهو يحاول السيطرة على أعصابه، عودة الزملاء الخائبة وما أصابهم فى ليلتهم البائسة بالإضافة إلى الذين لم يعودوا وأصبح مصيرهم مجهولاً، جعلته يتوتر وتنقلب حساباته رأساً على عقب، لم يستطع النوم منذ تلك الليلة وهاجمته الكوابيس والأفكار السوداء، لكن لم تعد هناك فرصة للتراجع، عليهم أن يقوموا بالمحاولة ويجربوا حظهم.

بدأت السماء تمطر مع دخول الليل، المطر فى هذه الصحراء غيره فى مصر، كثيف ومتواصل يصاحبه رعد وبرق لم يعهدوه من قبل، صعد جلال إلى الميكروباص وجلس بجواره هشام وفرج، كعادته أبدى هشام استياءه من تكدسهم فى العربة، كان أكثر الجميع تأثراً بما حدث لزملائه، وبدا كأنه على شفا انهيار عصبى، السفر إلى أوروبا لم يكن بالنسبة له لمجرد الحصول على المال، هدفه الأهم أن يعيش حياة كريمة فى بلاد تحترم آدمية الإنسان، أن يُغير حياته الراكدة التى لا يرضى عنها ولم تحقق له أى طموح إلى حياة أفضل، المطر وصوت الرعد المدوى يزيده توتراً ويجعله لا يتمالك أعصابه، هؤلاء المجرمون كيف سيجعلونهم يركبون البحر فى هذا الجو؟ نزول البحر فى هذه الظروف أشبه بعملية انتحار! يااه.. وصل بنا الحال إلى هذا الحد المزرى والمهين لكى نخرج من بلدنا؟! المقامرة بالحياة، المشى على الحد الفاصل بين الموت والحياة للوصول إلى فرصة ليست هى الأخرى مضمونة تماماً، لماذا ندفع الثمن بهذه القسوة؟ لمجرد أننا من أبناء الفلاحين الغلابة؟ لم يعد لنا مكان فى مصر، هل مصر بلدنا بالفعل أم مجرد مكان شاء حظنا العاثر أن نولد فيه؟ قطعة أرض تحتل مساحة من العالم أم وطن يطردنا ولم يعد يريد لنا العيش فيه؟ ما هذه المطبات.. هؤلاء الأجلاف الجهلة يعاملوننا كأننا قطيع من الخراف، وضعنا أنفسنا أو وضعتنا الظروف الظالمة تحت رحمتهم، دفعنا لهم ليتحكموا فينا بفلوسنا، يستغلون ضعفنا وحاجتنا الملحة للسفر ليسيئوا معاملتنا على هذا النحو المهين، بعد سنوات التعليم والكلية والشهادة الجامعية أجد نفسى فى هذا

الوضع، كسير.. مهان بلا كرامة، وقد أكون على حافة الموت، دفعت كل ما أملك واستلفت، وكتب أبى وصولات أمانة على نفسه بآلاف الجنيهات لأضع نفسى فى هذا الموقف، إن الصيادين الذين يمتهنون ركوب البحر لا يجرؤون على الإبحار فى هذا الجو وفى مثل تلك الليلة العاصفة، كيف أترك لهؤلاء الجهلة الذين لا يقبلون نقاشاً ولا يتفاهمون أن يتحكموا فى مصيرى، ليس من العقل أن أستسلم لهم وأجعلهم يسوقوننى إلى حتفى، إنهم يريدون أن يتخلصوا منا بأى طريقة ولا يعنيهم أن نعيش أو نموت فى البحر، ففى جميع الأحوال لن يحاسبهم أحد، المال فقط هو ما يهتمون به وقد حصلوا عليه بالفعل مقدماً، هذه الاستكانة التى أجدها فى رفقاء الرحلة تقتلنى غيظاً، إنهم على استعداد لتقديم أى شىء حتى كرامتهم فى سبيل تحقيق حلمهم بالسفر، لم يقف إلى جوارى أحد منهم وأنا أحاول الدفاع عن كرامتنا وأرد على الإهانات التى نتعرض لها، سكتوا وأداروا ظهورهم كأن الأمر لا يعنيهم، يريدون لهذه الأيام السوداء أن تمر بسلام، فهى مجرد فترة عابرة وستنتهى كما قالوا عندما تكلمت معهم، كبر دماغك ولا تعمل عقلك بعقل المهربين، إنهم شوية جرابيع نحن نعلم ذلك، لكننا بحاجة إليهم، فهم وسيلتنا للسفر، اعمل بالمثل الذى يقول، إن كان لك عند الكلب حاجة... أنا أعلم أنهم جبابرة هؤلاء الذين يدعون الاستكانة والخضوع، لكنهم يؤثرون طريق المكر والخداع للوصول إلى أهدافهم، حكمة قديمة طالما نفعت فى التعامل مع أصناف الظلمة الذين تقلبوا على حكم مصر وأمسكوا بزمام السلطة بها! كما أن الفقر

لعب دوره الأبدى فى إذلالهم والحط من شأنهم، لكن انظر إلى الواحد منهم إذا نجح واغتنى ورجع محملاً بالمال إلى بلدته!!

***

برغم إنشاء مقهى فى طرف العزبة بجوار عدة دكاكين تبيع البقالة والخضروات والفاكهة وأنواعاً أخرى متعددة من السلع، فإن عبد الواحد لم يذهب إليه أبداً وظل على عادته فى الجلوس على الدكة أمام باب بيته يشرب الشاى ويدخن الجوزة، لكنه أصبح يستمع إلى الراديو ويقلب محطاته كيفما شاء معتبراً ذلك أكبر ما يمكن أن يصل إليه من ترف.

كان قد قام بزراعة شجرة توت فى المساحة التى يُطل عليها بيته الواقع على رأس العزبة، واستغل تلك المساحة وجعل منها مجلساً له ولأصدقائه ومعارفه، وهم نفس مجموعة الشبان القدامى الذين كانوا يخرجون معاً فى ليالى الرى لحراسة البهائم وسقاية الأرض، يتجمعون كل ليلة تقريباً وعلى رأسهم عبد المعطى ليتسامروا عند شجرة التوت التى نقل عبد الواحد دكته تحتها وأتى بثلاث دكك أخرى لضيوفه.

فى بداية واحدة من تلك الليالى استغرب عبد الواحد وهو يقلب محطات الراديو، كانت كلها تذيع القرآن الكريم، بدا الأمر محيراً ومثيراً للقلق، تحلق الجمع وآذانهم معلقة بالراديو وقد سادهم الوجوم، وثمة شعور بالخطر يناوش صدورهم، مرت لحظات طويلة وهم يترقبون، يدخنون ويرتشفون الشاى فى صمت لا يقطعه إلا صوت الراديو وبعض كلمات تُقال بين الحين والآخر، ربنا يُستر.. اللهم اجعله خير، مازالت الحرب

قائمة، والجيش رابض على حدود القناة، ولا يخلو بيت من وجود شاب أو أكثر ضمن الجنود.
فى صوت حزين لا يكاد صاحبه يتمالك نفسه من البكاء أذاع الراديو نبأ وفاة الرئيس... آخر خبر يمكن توقعه، يا ساتر.. يا ساتر يا رب، يا خبر أسود، يااااه على دى المصيبة يا ولاد، وقع الخبر عليهم وقوع الصاعقة، كرد فعل رافض وغير مُصدق هب الجميع وقوفاً وهم ينظرون إلى جهاز الراديو بغضب، كأنه المسئول عن هذه المصيبة التى داهمتهم على حين غفلة، الخاطر الأول الذى دار فى رءوسهم أن الرئيس قد قُتل أو أُغتيل، وبدوا كأنهم على استعداد للتحرك فوراً للثأر له، ظلوا جامدين فى أماكنهم واقفين حتى أكد الراديو إن الرئيس توفى بأزمة قلبية وهو فى بيته، دارت بهم الدنيا وسقطوا على الأرض رجلاً تلو الآخر، واضعين أيديهم على رءوسهم والدموع تغطى وجوههم.
استعاد عبد الواحد ابتسامة الرئيس له ووجهه البشوش وهو يصافحه، تجسدت تلك اللحظة من أعماق الذاكرة حية بكل تفاصيلها، حتى إنه أحس بملمس كف الرئيس وضغطة يده القوية والحنونة معاً ووقفته الشامخة الراسخة على المنصة فصعُب عليه وجأر بالبكاء وهو جاثٍ على ركبتيه.
خرجت النسوة من البيوت مهرولات، وقد وضعن أيديهن على صدورهن فزعاً ليستطلعن خبر الجلبة التى يحدثها الرجال فى الخارج، ولم يلبث صراخهن أن شق فضاء العزبة.
وطن عبد الواحد نفسه على أنه لن يعيش ليرى هذه اللحظة أبداً، فهو أكبر فى العمر من الرئيس بعشر سنوات على الأقل، كما

أن الرئيس بالإضافة إلى شبابه يتمتع بصحة وعافية تهد الجبال ولا يمكن للمرض أن ينال منها، فكيف له أن يموت هكذا بهذه البساطة؟ بل كيف تجاسر الموت عليه؟!

أستغفر الله، أستغفر الله العظيم، سبحان من له الدوام، لكن.. لكن أستغفرك وأتوب إليك، كنت خليته لنا يا رب، علشان الغلابة والمساكين.. آآه يا بووى، ليه كده.. ليه كده يا رب! كان لسه بدرى عليه، ياااا رب إنت عارف غصباً عنى والله، مش قادر.. يا حرقة قلبى عليك يا خووى.

لم يكن عبد الواحد هو الوحيد الذى راح يندب ويهذى تحت تأثير الصدمة، أصاب الذهول جميع الناس كبيرهم وصغيرهم، الخبر الذى أذاعه الراديو كان آخر ما يتوقعه إنسان، لم يكن أحد يعلم شيئاً عن مرض الرئيس وتدهور صحته فى الأعوام الأخيرة، وأنه أصيب بجملة أمراض دفعة واحدة أثناء هزيمة الجيش وانسحابه من سيناء وفشل حساباته السياسية وانهيارها تماماً.

فيما حول مجموعة العزب التى تشكل القرية حيث مازال المُلاك القدامى قابعين فى فيللهم وقصورهم داخل ما تبقى من أراضيهم وإقطاعياتهم، داهمهم الخبر كما داهم الجميع، كانوا يعتقدون كغيرهم إن هذا الحدث بعيد عن الاحتمال، توقع معظمهم أن هذا الخبر سوف يُسعدهم ويشفى غليلهم بعد ما تعرضوا له من مصادرة، بل إن بعضهم كان يتمناه، ويتوقع أن اليوم الذى سيحدث فيه سيكون يوم فرح وابتهاج يشربون فيه نخب الاحتفال، لكن الخبر وقع على رءوسهم صاعقاً صادماً مصحوباً بكآبة جثمت على القلوب بغير توقع، جلست النساء على كراسيهن أمام شاشة التليفزيون ودموعهن تنساب فى صمت،

بينما وقف الرجال متحيرين وقد هزهم الخبر المباغت، هرع بعضهم إلى غرف المكاتب حيث توجد زجاجة ويسكى منسية منذ زمن وسكب لنفسه كأساً، لا احتفالاً، ولكن ليهدئ أعصابه ويتماسك وهو يستغرب ما يشعر به من ضيق وحزن...
أطبق على الناس هذا الشعور الجمعى الذى لا يمكن تجاهله ولا إنكاره، بأن الزمن الصعب قد بدأ لتوه.

***

لم يتمكن جمال الابن الأصغر لعبد الواحد من الحصول على الثانوية العامة ورسب لثلاث سنوات متتالية، ثم استدعى للتجنيد بعد انتهاء حرب السادس من أكتوبر، وعودة صابر الذى تسلم وظيفته وتزوج بعد شهر على عودته الظافرة.
رجع سعد حفيد عبد المعطى إلى العزبة بعد حصوله على بكالويوس التجارة، كان قد سار فى التعليم بسلاسة دون أن يرسب سنة واحدة، ورث عن جده الذكاء وحدة العقل، لذلك كان هو الأكثر قرباً منه بين أحفاده الكثيرين، أنجب عبد المعطى ابناً واحداً وأربعة بنات تزوجن تباعاً وشرعن فى الإنجاب بضراوة، بينما أنجب حسين ابن عبد المعطى سعداً وبنتين فقط.
بالطبع هناك وظيفة مضمونة لسعد فى الحكومة، عبر القوى العاملة التى كانت فى ذلك الوقت تحول الشبان الحاصلين على مؤهلات دراسية إلى موظفين فى وزارات وهيئات ومؤسسات الدولة المتعددة، لكن سعد نفر من الوظيفة الحكومية ولم يرض أن يلقى المصير التعس لموظفى الحكومة، فقد كان طموحاً ويريد أن يحقق لنفسه حياة ترضى هذا الطموح.

قرأ سعد الكثير من الكتب التى وجدها فى مكتبة جده، بالإضافة إلى ما كان يشتريه ليشبع نهمه إلى القراءة، بالطبع كان عبد المعطى يفرح به ويشجعه، ويرى أن حلمه بالحياة الكريمة والوظيفة المحترمة والخروج من سجن الفلاحة وكسرة الظهر من شغل الفأس سوف يتحقق عن طريق حفيده، لكن طموح سعد كان أكبر من أحلام جده، أراد أن ينطلق إلى عالم أبعد ويرى الحياة فى جانبها المختلف هناك على الشاطئ الآخر للبحر، منذ وصوله إلى سن الشباب وهو يحلم بأوروبا ويتمنى أن يعيش نمط الحياة الذى يقرأ عنه ويشاهده فى السينما وأخيراً فى التليفزيون.

أبوه حسين الذى لم يتمرد على مهنة الفلاحة ورضى بها عن طيب خاطر، يتولى شئون الفدانين منذ أن بلغ سن الرجولة، وترك له عبد المعطى أمر الأرض ورعايتها بمحض إرادته.

لم يكتف حسين بالفدانين، بل سعى كفلاح ماهر إلى استئجار مساحات أخرى وزراعتها لحسابه، يسجل يومياً فى دفتر صغير يحمله فى جيب الصديرى مصروفاته، ثمن التقاوى والأسمدة والمبيدات وتكاليف الرى ويوميات العمال.. ويحسب أرباحه بدقة تعلمها من أبيه، كان عبد المعطى الذى عرف أن ابنه لن يُفلح فى التعليم قد أجبره بالضرب على تعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، ولم يدعه حتى تأكد أنه قد أتقنها، ثم تركه بعد ذلك ليعمل فى الأرض كما يشاء.

فى أحد الأيام وسعد راجع آخر النهار من الغيط بصحبة أبيه، يسحبان خلفهما جاموستين وبقرة، فاتح أباه برغبته فى السفر إلى أوروبا، صمت الأب لفترة وقد صدمه كلام ابنه غير

المتوقع، فوجئ تماماً لدرجة أنه احتار فيما ينبغى أن يكون الرد، فقد هيأ نفسه على أن سعداً سوف يلتحق بوظيفة ما فى إحدى المدن القريبة أو فى عاصمة المحافظة على أقصى تقدير، فى كل الأحوال كان يعلم أن ابنه لن يستمر فى الحياة معهم بالعزبة، لكن المشوار الذى يريد الابن أن يسيره أبعد مما كان يتخيل.. بكثير، حتى القاهرة نفسها لم يذهب خياله إليها، ولم يفكر يوما أن ابنه من الممكن أن يكون من سكانها.

نظر إلى رءوس الأشجار المطلة عليهما من جانبى الطريق، وأطال التفكير قبل أن يقول.

- طيب إسأل جدك واعرف رأيه.

فى سنوات الجامعة تعرف سعد على زملاء له سافروا إلى أوروبا فى فترة الإجازة الصيفية، كانوا يرجعون ومعهم الكثير من المال ويرتدون ملابس أنيقة اشتروها من هناك، وبالطبع يحكون لزملائهم عن تجاربهم وما مروا به خلال فترة إقامتهم هناك، سهولة الحصول على عمل فى المطاعم والفنادق والمزارع، والعلاقات التى أقاموها مع الفتيات المتحررات الجميلات، والخروج فى إجازات نهاية الأسبوع للنزهة بصحبتهن إلى الشواطئ والحدائق والمنتجعات والغابات القريبة من المدن، وهو ما كان يدير رأس سعد ويدفعه للحلم بأن يعيش تلك الحياة.

قبل سعد يد جده وجلس بجواره، وتكلم معه مباشرة فى الموضوع دون تمهيد أو لف ودوران، بطبيعة شخصيته التى تعرف هدفها وتسير نحوه بلا مراوغة أو تردد.

رجع عبد المعطى بذاكرته إلى أيام الخواجة لوسيان وابنته كريستينا، ثم ابتسم ابتسامة واسعة انشرح لها قلب الحفيد قبل أن يسأله.

- عايز تسافر أوروبا يا سعد؟

قالها الجد كالحالم، أعجبه إلى حد بعيد طموح حفيده وراقته الفكرة وهو يقلبها فى رأسه، كانت الفرحة بحصوله على البكالوريوس مازالت تملأ قلبه، لكنه كفلاح عتيد تعلم من كر الأيام المكر والتمهل فى معالجة الأمور، لم يشأ أن يعلن موافقته هكذا صراحة ومن اللحظة الأولى.

- الموضوع ده يكلف كام؟

- حوالى ستين جنيهاً ثمن تذكرة الطائرة، وثلاثين أو أربعين جنيهاً لزوم المصاريف هناك إلى أن أجد عملاً.

- يعنى حوالى مائة جنيه، ده كتير جداً.

- البركة فيك يا جدى.

- وكيف ستعيش هناك وأين ستقيم؟

- فى بيت الشباب أولاً حتى أجد سكناً.

- فهمنى ماذا يعنى بيت الشباب هذا؟

أخذ سعد يحكى لجده ما عرفه من زملائه عن الحياة فى أوروبا، وعبد المعطى يستمع إليه باهتمام ويتابعه بالأسئلة وقد تفتح شغفه بالمعرفة، وازدادت رغبته فى اكتشاف هذا العالم الذى يتحدث عنه حفيده، ثم أعلن فى النهاية بعد ثلاث ساعات من النقاش والأسئلة، استصفى خلالها كل ما يعرفه سعد عن أوروبا، إنه سوف يفكر فى الموضوع، لأن تدبير مائة جنيه مسألة ليست سهلة.

***

بعد أن قضى جمال ثلاثة أعوام التجنيد كعسكرى عادة، رجع إلى العزبة شبه عاطل وفى وضع لا يحسد عليه، نصف متعلم لا يحمل شهادة، ولا حرفة له أو صنعة يعيش منها، صابر أخوه الأكبر منه مباشرة موظف فى المصنع، وشقيقاه فاروق وعامر يتوليان العمل فى الثلاثة أفدنة، وليس له عمل حقيقى معهما، كما أن انشغاله فى المدرسة طوال فترة طفولته وصباه حال بينه وبين احتراف الفلاحة، بالطبع كان ينزل الغيط أثناء إجازة الصيف ويساعد فى العمل، لكن أخويه كانا يتعاملان معه على أنه ابن مدارس ناعم اليد لا يمتلك الطاقة للعمل، الشاق فى الأرض والزراعة.

وبالرغم من ترفق أبيه به لكنه فى داخل نفسه كان يشعر بأن أمله خاب فى هذا الابن الذى توقع له فى يوم من الأيام مستقبلاً أفضل من بقية إخوته، حتى إنه عندما أفضت إليه امرأته فيما بينهما برغبتها فى تزويجه، شخط فيها وسبها وأمرها أن تغلق هذا الموضوع ولا تفاتحه فيه مرة أخرى حتى يجد جمال لنفسه عملاً أو مهنة، واختتم كلامه قائلاً لها بحسرة.

- ده لا فاس ولا قلم، لا فلاحة ولا شهادة، يعمل إيه ويروح فين فى الزمن الصعب ده؟!

الفارق فى العمر بين جمال وسعد سنتان، عادة ما كانا يتشاجران وهما فى المدرسة الابتدائية، جمال الأكبر سناً كان يعتبر سعد طفلاً صغيراً بالنسبة له ولا يحب أن يلعب معه أو يصاحبه طوال فترة الطفولة، لكنهما تصادقا بعد ذلك فى الثانوى، وبالتحديد فى العام الذى وصل سعد فيه إلى الثانوية العامة وجمال فى عامه الثالث فيها.

بالرغم من فشل جمال فى الحصول على الثانوية العامة إلا أنه ليس غبياً، كما أن سوء الحظ الذى صادفه فى الدراسة لم يؤثر فى ثقته بنفسه، بشكل غامض يصعب تفسيره كان لديه القناعة بأنه إنسان محظوظ وأن مستقبله سعيد والحياة لديها ما تقدمه له، يوقن أن هناك فرصة ما سوف تنتشله من وضعه المأزوم، وعليه فقط أن يقتنصها عندما تأتى، يترقب الأيام كصياد ينتظر فريسة يعلم أنها لن تتأخر فى الوقوع بين شباكه، لكنه فى نفس الوقت يحز فى نفسه ما يعانيه أبوه بسببه، كثيراً ما أراد أن يقول له إن الإخفاق فى الثانوية ليس نهاية العالم، لكنه لم يجرؤ، فلا يلوح فى الأفق ما يدعو إلى التفاؤل إلا ما يجده من أمل بسبب هذا الشعور الراسخ فى نفسه نحو المستقبل.

فى هذه الفترة بينما كل من جمال وسعد يسعى لشق طريقه نحو مستقبل لم تتضح معالمه بعد، شهد مجتمع العزبة تغيرات أخذت تفرض واقعاً جديداً، توسعت العزبة بزيادة عدد سكانها، والتهمت مساحة كبيرة من الأراضي الزراعية حتى أصبحت بُيوتها تُطل على الحقول مباشرة، بل وتوغلت تلك البيوت داخل الزراعات حتى كادت تتلاصق مكونة خطوطاً من المبانى العشوائية بينها مساحات خضراء، تُزرع بلا قيد أو شرط بعد أن انتهى نظام الدورة الزراعية واندثرت أيامه، ورفعت الدولة يدها عن التحكم فى إنتاج المحاصيل، بينما حركة البناء تزداد مع الأيام وتمتد إلى الحقول بشراسة وتتناثر البيوت كالبثور على وجه الغيطان الأخضر، أخذت طلائع الانفتاح تصل كشذرات فى صورة سلع غريبة ليس للناس بها معرفة من قبل تأتى من المدن القريبة ومن العاصمة، فئات غنية بدأت فى الظهور

تشترى الأراضى وتدفع بسخاء، ترتفع عمارات أسمنتية من طابقين أو ثلاثة تحل محل بيوت الأباء والأجداد الطينية، سيل من البضائع المستوردة رأساً من أوروبا تغرق الأسواق والدكاكين، معلبات ومشروبات وملابس وأجهزة كهربائية تباع بأسعار مناسبة وفى مقدور الجميع.. لحظة من الزمن لم تستمر طويلاً، بدا فيها أن الحياة تسير نحو الأفضل، حالة من الرواج والوفرة سادت المجتمع حتى فى الحشيش والمخدرات!!

تكتم سعد أمر سفره عن الجميع بمن فيهم صديقه جمال، يقضيان معظم الأمسيات معاً، يجلسان أحياناً فى المقهى، أو يتمشيان إلى الكوبرى حيث يقضيان ساعات فى الحديث وأمامهما سطح الترعة الذى يمضى فى مجراه العريض حتى يغيب عن البصر، وسعد يخفى أسباب مشاويره الدائمة أثناء النهار إلى عاصمة المحافظة وإلى القاهرة لاستخراج جواز السفر والأوراق والتصاريح اللازمة لسفره إلى فرنسا، ويخبر الجميع بأنه يبحث عن عمل ويسعى للحصول على وظيفة فى القاهرة، مشوار شاق قطعه سعد خطوة خطوة فى أضابير الحكومة وإدارات الجوازات والمحافظة والتجنيد، حتى أتم مهمته وحصل فى النهاية على تأشيرة السفر من السفارة الفرنسية.

من بين العدد المحدود لأصدقاء سعد ورفقاء طفولته، أسر إلى جمال وقبل موعد سفره بيومين، بأنه سيسافر إلى فرنسا، كادت المفاجأة تصيب جمال بالشلل.. ياااه فرنسا مرة واحدة، آآه يا سعد يا ابن الحرام.

فى تلك الليلة وهما يتمشيان قرب مكان الساقية القديمة المطل على الترعة وسط الهدوء، أخبر سعد صديقه بتفاصيل

الموضوع، كان بحاجة للكلام حتى يخفف من توتره الذى أخذ يتصاعد مع اقتراب السفر وبدء مواجهته للمغامرة الكبيرة، تجربة اعتمد فيها على كلام أصدقاء الجامعة، وحلم طالما تمنى أن يتحقق وهاهو يقف الآن على أعتابه، وعد جده أن يرد إليه المال الذى دفعه لتكاليف السفر، المائة جنيه دين فى رقبته عليه أن يسددها ولا يعرف حتى هذه اللحظة كيف سيفعل ذلك، لا يملك إلا الأمنيات لكنه على استعداد للعمل وخوض الطريق مهما بلغت مشقته حتى ينجح...

الأفكار تدور فى عقله وتتحول إلى هواجس حتى تحين لحظة إقلاع الطائرة، صحيح ما قالوه وقوع البلاء ولا انتظاره، هذه الساعات المتبقية توتر أعصابه وتكاد تدفعه إلى الجنون، يشعل السيجارة تلو الأخرى وهو يتكلم مع جمال وينظر إلى سطح الماء المنساب فى الترعة والأشجار تصدر حفيفها حولهما بفعل نسمات الهواء التى تتخللها.

ما أجمل مصر وريفها وزرعها وحقولها.. هذا الشجن الذى يشعر به فى هذه اللحظة لم يكن له وجود فى قلبه من قبل، فى هذه الساعات فقط تبدى له قيمة ما سوف يفقده.. أو ما سيتخلى عنه بالسفر والهجرة بعيداً، إلى عالم آخر ودنيا لا تمت بأى صلة للدنيا التى عرفها ونشأ فيها، أرض غير الأرض وناس غير الناس.

استمع جمال بشغف إلى سعد وهو يحكى له، ومن بعيد فى نهاية الأفق أخذت تلوح بوادر الفرصة التى يبحث عنها، هذا الطريق الذى سيبدأ صديقه أولى خطواته، ربما يكون هو الطريق الذى

ينبغى له أن يسير عليه، يخرج بدوره من هذا العالم الذى ضاق عليه ولم يعد يجد فيه مكاناً.
قبل أن تنتهى جلستهما، كان جمال قد أخذ وعداً مؤكداً من سعد بأن يرسل له خطابات يخبره فيها عن حياته هناك، وعن إمكانية أن يسافر إليه عندما يستقر ويجد عملاً.

8

- هيا.. أسرعوا.

بمجرد وصول الركب إلى الشاطئ نزل المهربون بحركتهم السريعة من السيارات وأسلحتهم مشرعة فى أيديهم، وبدأوا فى تنظيم الشبان ودفعهم نحو الزورقين.

اندفع جلال بجسده الضخم القوى وخاض الماء ليصعد إلى الزورق ببساطة ويحتل مكانه فيه وهو مستعد لمواجهة كافة الاحتمالات، جلس مواجهاً البحر كأنه يتحداه، جلس راسخاً فى مكانه والزورق الصغير يتأرجح به على صفحة الماء بسبب حركة زملائه وهم يتتابعون على الركوب قفزاً، صعد فرج بدوره وهو ينظر إلى السماء الممطرة قائلاً بصوت مسموع، ربنا يستر.

وقف هشام ينظر إلى زملائه وهم يندفعون إلى البحر ويخوضون الماء مرتجفين من برودة الجو ومن المطر النازل عليهم، دفعه أحد المهربين دفعة قوية فى كتفه زاعقاً بغضب.

- هيا إيش تنتظر.. اصعد.

التفت هشام نحو الرجل ودفع يده الممدودة نحوه بشدة جعلت الرجل النحيف يترنح، وصاح فيه.

- لا تمد يدك.. فاهم.

نظر له البدوى بغل، وأشار بيده الأخرى التى تحمل المسدس باتجاه الزورق، لكن هشاماً لم يتحرك خطوة واحدة.

- الحمولة زائدة بأكثر من الضعف، هذه الزوارق معرضة للغرق، كيف أركب فى هذا الجو، أنت لا تفهم مدى خطورة هذا

العمل.. سوف أرجع، لن أسافر بهذه الطريقة، أنتم سوف تقتلوننا.
أخذ هشام يزعق فى الرجل وتتطاير كلماته فى الهواء، بدأت الأنظار تتجه ناحيته مستطلعة ما يحدث بترقب حذر.
- إيش تريد يا كلب؟!!
توقفت الحركة وتكهرب الجو، للحظات ظن الشبان أن مشاجرة سوف تقوم بين هشام ورجال البدو، وهم يرونهم يتركون أماكنهم ويسرعون نحوه، لكنهم حتى هذه اللحظة لم يكونوا يعرفون طبيعة الرجال الذين يتعاملون معهم.
سقط هشام فجأة قبل أن يقترب منه أحد، صفير الرياح أخفت صوت طلقة الرصاص، وطار به قبل أن تتأكده الآذان، تلقى هشام الرصاصة فى منتصف جبهته تماماً، ساد الصمت لعدة لحظات عاد بعدها المهربون إلى أماكنهم كأن شيئاً لم يحدث، استكملوا عملهم فى تنظيم الشبان ودفعهم نحو الزورقين، تحرك الشبان بآلية تحت وقع الصدمة وهم فى حالة يختلط فيها الرعب بالذهول، كانوا يختلسون النظر إلى هشام الراقد بلا حراك على الأرض، وهم لا يعرفون إن كان مازال على قيد الحياة أم لا؟ حال الظلام الدامس بينهم وبين رؤية زميلهم بوضوح كافٍ، فلم يتبينوا دماءه التى رسمت بقعة كبيرة على الرمال، مروا وعيونهم تحاول عبثاً أن ترى من خلال المطر والرياح الباردة التى تلسع وجوههم جسد هشام، لم يستطع واحد منهم أن يمعن النظر، لكنهم جميعاً أدركوا أنه لا يتحرك ولا يتأوه ولا يرفع يداً ولا ساقاً كما كانوا يتوقعون أو يأملون، فى لحظة إطلاق الرصاصة ظنوا أنها طلقة فى الهواء للتخويف، وأن هشاماً رقد

هلعاً وتحاشياً للرصاص، ولما رأوه لا ينهض دار فى أذهانهم أنه أصيب فى إحدى ساقيه أو ذراعيه أو فى كتفه على أكثر تقدير، لم يصل تصورهم إلى القتل أبداً، فالأمر من وجهة نظرهم لا يستحق أن يصل إلى هذا الحد، لكنهم أدركوا فى النهاية أن زميل رحلتهم قد مات قتيلاً أمامهم، دون أن يجرؤ واحد منهم على الاعتراض ولو بكلمة!

تراصوا فى الزورقين وهم تحت وطأة الشعور بالخزى، وقد أطبق عليهم صمت قاتل، فشبح الموت لم يكن بعيداً عنهم وهم يزحفون على سطح البحر نحو المركب التى كانت تتأرجح بشدة وهى تقف بانتظارهم داخل البحر.

****

نظر سعد إلى مصر من شباك الطائرة التى أقلعت به فى الصباح الباكر، الجو الرائق سمح له أن يرى مجرى النيل وهو يلمع تحت أشعة الشمس ويتوغل فى عمق الدلتا الكثيفة الخضرة، على الحواف يتحول اللون إلى الأخضر الباهت تدريجياً، ولا يلبث أن يتلاشى فى مساحة الصحراء الشاسعة.

وفىّ سعد بوعده بعد أربعة أشهر، أرسل إلى جمال رسالة مطولة يخبره فيها بما لاقاه من مشقة فى فرنسا، عمل فى مزارع العنب حتى نهاية موسم الحصاد مع عمال معظمهم من الجزائر والمغرب، بالإضافة إلى الأفارقة وقلة من المصريين، العمل مرهق وهم لا يقبلون أعذاراً ولا يعرفون كلمة معلش، بعد شروق الشمس بساعة ينزلون إلى الحقول لقطف العناقيد وجمعها فى سلال بلا دقيقة واحدة راحة، عند الظهيرة

يستريحون لنصف ساعة فقط يتناولون خلالها الغداء ثم يعاودون العمل إلى ما قبل غروب الشمس، أكثر من شهرين قضيتهما على هذا الحال لم أشعر خلالهما أنى فى أوروبا، فلم أر منها شيئاً سوى صفوف شجيرات العنب والسرير الذى أنام عليه فى مكان شبيه بالعنبر، الأرض تختلف تماماً عن أرضنا حتى رائحتها، رائحة التراب والزرع لها طبيعة أخرى وطعم مختلف، رائحة أخرى ليست أجمل ولا أسوأ، لكنها فقط مختلفة عن رائحة أرضنا وزرعنا، الطبيعة نفسها لها طابع مغاير للطبيعة عندنا، تعطى الإنسان شعوراً آخراً عندما ينظر إلى السماء أو إلى الأفق البعيد، ربما لأن الجو أيضاً مختلف، حتى شكل السحاب ولونه وكثافته وهو يغطى وجه السماء ويحجب الشمس معظم النهار، وفى أى لحظة يفاجئك بالمطر الذى يسقط فوق الرأس كالمسامير، يقولون هنا أن مطر الشتاء أصعب من هذا بكثير، ربنا يستر.

مجموعتنا من المصريين مختلفة أيضاً، وكنا كالخرس وسط الآخرين، فكلهم يجيدون الفرنسية ويتفاهمون بها ما عدانا، وحتى الجزائريون والمغاربة لم يكونوا يتقنون العربية، والتفاهم معهم يتم بصعوبة، بعض كلمات من هنا وهناك خليط من الفصحى والإنجليزية التى أعرفها إلى حد ما.

نزلنا باريس فى بداية الشتاء، وبعد أيام طويلة قضيتها فى البحث عن عمل استطعت أن أحصل على فرصة بمساعدة أصحابنا من المصريين والعرب للعمل مع مقاول تشطيب ودهانات جزائرى، حيث أشتغل الآن مساعد نقاش، نحن نسكن عشرة فى شقة صغيرة لا تزيد عن ستين متراً.

أوروبا ليست جنة الله على الأرض كما كنا نتصور، والعمل فيها صعب والأجر ليس كبيراً، بطلوع الروح يكفى لأجرة السكن والأكل والشرب، أما الملابس فهى غالية جداً ولا أستطيع شراءها إلا بصعوبة، مصر وحشتنى جداً وأنا حاسس بغربة، وأتمنى أن تحضر إلى هنا أنت أيضاً ليزول عنى هذا الإحساس.
سلامى لجميع الأهل فى بلدنا فرداً فرداً.
ملحوظة/ كتبت لك عنوانى بالتفصيل لترسل لى ردك على جوابى، ولو أردت أن تسافر وتحضر إلى هنا أرسل لى برقية وسوف أنتظرك فى المطار لعله يطمر فيك.
قرأ جمال الخطاب أكثر من مرة، وكان قد انتظره بنفاد صبر طوال الأشهر التى أعقبت سفر سعد، وقال لنفسه فى نهايته، سأسافر مهما كان.
تقبل عبد الواحد فكرة سفر ابنه الأصغر على مضض، برغم أنه وجد فيها حلاً لمشكلته، لكنه خشى أن يلاحقه الفشل فى الغربة أيضاً وتضيع سنوات من عمره بلا طائل ويرجع كما راح خالى اليدين، الأم كانت العقبة الأكبر، رفضت مسألة السفر رفضاً قاطعاً وثارت فى وجه زوجها وأبنائها وبناتها الذين أظهروا موافقتهم لجمال، ورضوا عن طيب خاطر أن يساعدوه فى تكاليف السفر، كل منهم كان يشعر فى نفسه بشىء من تأنيب الضمير على وضعه بينهم بلا عمل وعجزهم عن تقديم العون له، تعاونوا جميعاً على تهدئة أمهم وتطييب خاطرها حتى رضخت فى نهاية الأمر ورضيت من وراء قلبها.
لكنها مع ذلك جادلت ابنها فى المكان الذى يريد السفر إليه، أوروبا بالنسبة لها مكان مجهول بعيد، هناك العديد من الشبان

سافروا إلى السعودية والعراق وبعضهم رجع بمال وفير كما سمعت من نساء الجيرة، حكايات كثيرة تروى فيما بينهن عن الأزواج والأبناء الذين ذهبوا للعمل هناك، منهم من اشترى أرضاً وبنى بيتاً جديداً بالطوب والأسمنت، ومنهم من امتلك دكاناً، ومنهم من اشترى سيارة نصف نقل ليعمل عليها، وهناك من بقى ليجمع المزيد من المال.

جلست مع جمال محاولة إقناعه بتغيير اتجاه سفره إلى البلاد التى نعرفها، ولها نفس ديننا ولغتنا، لكنه نفر من الفكرة وقال لها.

- دى مش سكتى يا امه، وإلا كنت سافرت هناك من زمان.

أدرك جمال منذ البداية أن السفر إلى الدول العربية المجاورة يحتاج إلى شهادة أو حرفة، وهو يفتقد كلاهما، وهذا ما لم تفهمه أمه، فهى بطبيعة الحال ترى أن ابنها لا ينقصه شىء وأنه يفوق غيره من الشبان الذين سافروا وعادوا بالمال.

لمدة شهرين ظل جمال يسعى فى مكاتب الحكومة ويتنقل بين موظفيها وإداراتها لاستخراج التصاريح والأوراق اللازمة، حتى تمكن أخيراً من الحصول على جواز السفر ليقف بعدها أمام السفارة الفرنسية ويحصل على تأشيرة الدخول إلى فرنسا، ويسافر بعدها بأيام بطائرة مصر للطيران ويهبط فى مطار باريس ليجد سعداً فى انتظاره.

***

لم يستسغ جمال العمل فى مجال المعمار، برغم أنه اشتغل بكل جهده لشهور متواصلة، فلم يكن هناك مجال للرفض أو

التقاعس، خلال هذه الفترة استطاع سعد أن يترقى فى العمل من مساعد نقاش إلى نقاش بعد أن أتقن هذه الحرفة وبرع فيها.
بعد مرور ما يقرب من العام على وصول جمال استطاعا الانتقال إلى سكن أفضل فى نفس الحى الذى يقع فى ضواحى باريس وتقطنه أغلبية من المغاربة والجزائريين، عمارات ضخمة لها مداخل متعددة وممرات متداخلة يتوه فيها الإنسان عندما يدخلها للمرة الأولى، تشغى بسكانها وأطفالهم الذين لا يكفون عن الصخب والضجيج طوال ساعات النهار، السكن فى هذا الحى الذى يعد أفقر أحياء المدينة أرخص بكثير من أى مكان آخر.
استأجرا غرفة فى إحدى هذه الشقق، غرفة يستطيعان أن يضعا فيها أغراضهما ويغلقان بابها بالمفتاح، ولكل منهما سرير لا ينام عليه أحد آخر، ليس بالشقة التى يعيش فيها معهما عمال عُزاب حمام، فى هذه العمارات توجد حمامات مشتركة لكل مجموعة من الشقق، ويحصل الساكن على مفتاح الحمام عند استئجاره للغرفة أو الشقة.
تأقلم كل من سعد وجمال مع الحياة فى هذا الحى، واكتسبا عاداته وطباعه، وتعودا المعيشة المشتركة مع جنسيات مختلفة ولهجات مغايرة.
فى الطريق إلى العمل، وبمجرد الخروج من حدود الحى الذى يقطنان فيه، تبدو الدنيا أزهى وأجمل، يجد سعد وجمال كلاهما سعادة بالغة وهو يقطع هذا المشوار اليومى، ينظر جمال من خلال زجاج نافذة الأتوبيس إلى البيوت والعمارات الأنيقة التى تحيط بها الحدائق، والأشجار المنتظمة على جانبى الشارع،

والحدائق العامة التى تتوزع فى أرجاء المدينة بتنسيق بديع، الجو النقى الخالى من الغبار ورائحة العوادم برغم كثرة السيارات، الشوارع النظيفة الواسعة بأرصفتها العريضة، البشر بوجوههم المتوردة وحركتهم النشطة ومظهرهم الذى ينم على الصحة..، كل ما يراه يوحى بالذوق والإحساس بالجمال، يتذكر مصر التى يعرفها بحقولها وبيوتها الطينية وعمارتها الضيقة التى تحرص على توفير المساحات إلى حد الاختناق، المدينة القريبة من قريتهم بأزقتها وشوارعها المتربة، حتى القاهرة التى زارها ثلاث مرات لا أكثر.

ليست المقارنة مفزعة على أية حال، فطبيعة مصر لها جمالها الخاص بها أيضاً، بالإمكان الاقتراب من هذه الأوضاع التى يراها هنا حيث كل شىء مصنوع بيد الإنسان، استطاعوا ترويض الأرض والسيطرة على طبيعتها بالتخطيط وإتقان العمل ومراعاة الضمير.. لا أكثر، فهم يحبون بلادهم ولا يرضون لها إلا الأفضل، فيما يتعلق بالناس الأمر مختلف تماماً، طبيعتهم لا تماثل طبيعتنا، لا يتنازلون عن حقوقهم أبداً، تحت أى ظرف لا يقبلون التنازل، يعاملونك باحترام ولا يغشك أحدهم أو يكذب عليك، وفى المقابل لا يسمح لك أن تفعل ذلك معه، ولا أن تمس حقاً من حقوقه التى يحميها القانون..، القانون هو الكلمة السحرية للحياة هنا، بل هو مفتاح الحياة، والسبب الرئيسى لكل مظاهر الحضارة والجمال والرخاء، يقف خلف النهضة الصناعية والاقتصادية والعمرانية والثقافية، ينظم كافة التعاملات بين الناس وبعضهم، وبينهم وبين الدولة نفسها ممثلة فى إدارات وهيئات الحكومة، بدءاً من إشارات المرور وانتهاءً

بالحقوق الدستورية للمواطن، يردع الظالم والفاسد ويحاكمه ويحمى الضعيف ويعطيه حقوقه فى الحياة الكريمة، ويجعل رجل الشرطة يحترم إنسانية المواطن، ويقدم له المساعدة إذا احتاجها دون أن يتعالى عليه أو يزدريه، لا أحد فى هذه البلاد يعلو فوق القانون كائناً من كان، الوزير والرئيس نفسه لا يستطيع تجاوز القانون وإلا تعرض للعزل من منصبه والمحاكمة.

لم يجد جمال أى صعوبة فى تغيير عمله بعد أن استقر فى باريس وعرف طرقها وشوارعها وأحياءها ومطاعمها ومقاهيها، وأصبح بإمكانه أن يفهم الفرنسية ويتعامل بها، عن طريق الأصدقاء الذين تعرف عليهم من خلال علاقات العمل والسكن استطاع الانتقال ليشتغل فى مطعم يقع فى منطقة راقية فى قلب باريس قريبة من شارع الشانزلزيه، منذ اللحظة الأولى وهو يضع قدمه ليطأ عتبة باب المطعم أحس بارتياح وتفاءل بالمكان، أنعشته الرائحة الزكية التى شمها، رائحة خافتة قادمة من المطبخ، تُحسها ولا تلمسها، على العكس من رائحة الدهانات والبويات التى كانت تصيبه بالاختناق، ولم يعتدها أبداً برغم طول المدة التى قضاها فى مجال المعمار وأعمال التشطيبات والدهانات، تطلع إلى الحوائط وأركانها المزينة بالنقوش والمناضد المنسقة بعناية، وأحواض الزهور الرخامية الأنيقة التى تتوزع بينها، أما الحديقة الخارجية التى تُطل عليها صالة المطعم، والتى تنتشر بها نباتات ملونة وأشجار زينة مشذبة ببراعة كأنها لوحات فنية، وأرضيتها ذات الأحجار البيضاء المصقولة، وكراسيها المصنوعة من الحديد المزخرف

فقد بدت فى نظره جنة صغيرة استبشر برؤيتها وأحب العمل منذ اليوم الأول.

بعد ستة أشهر من غسيل الصحون استطاع أن يتقدم خطوة، كان قد أثبت كفاءة فى العمل، لم يصدر عنه خطأ واحد، وبدا دائماً نظيفاً ومهذباً فى تعامله مع الجميع مما جعل الشيف الفرنسى البدين والطيب القلب يعهد إليه بمساعدته فى إعداد الطعام والقيام بالعمليات الأولية لتجهيز الوجبات، مثل تقشير البطاطس وتقطيع الخضروات، وبعد أيام قليلة أصبح جمال يستعمل السكين بمهارة وحذق أثارت إعجاب الشيف، ولم يلبث أن انطلق كاشفاً عن موهبة فطرية فى فنون الطبخ والطهى مستوعباً بسرعة لافتة أسرار هذه المهنة المربحة فى أوروبا بأسرها.

***

فى هذا اليوم السادس من أكتوبر مساءً، تأكد نبأ اغتيال الرئيس المصرى، كان خبر الحادث قد أذيع بشكل مكثف فى مختلف محطات التليفزيون بعد حدوثه بقليل فى صباح نفس اليوم، كانت نبرة الأسف للحادث واضحة لدى إذاعة النبأ الذى لقى اهتماماً واسعاً من الإعلام الفرنسى على مدى اليوم أثناء متابعة تطورات الحالة الصحية للرئيس حتى إعلان وفاته، تلقى كل من سعد وجمال الخبر بمشاعر محايدة، فقط شعرا بالقلق خشية حدوث اضطرابات فى بلدهما عقب الحادث، لكن الأخبار المطمئنة سرعان ما وصلت إليهما باستقرار الأوضاع، فعادا إلى الانشغال بعملهما، لم يخطر على بال أحدهما أنهما مرا بلحظة فارقة فى تاريخ الوطن، ستنقلب بعدها جميع الأحوال

رأساً على عقب، وأن زمن الفقر قد جاء وبلدهما على وشك بدء أكثر عهودها ظلماً وفساداً!

***

أبدت الفتاة الرائعة الجمال بشعرها الأشقر الطويل وعينيها الزرقاوين وجسدها الرشيق إعجابها بجمال، سائحة إيطالية تتحدث الفرنسية بصعوبة، تأتى بشكل شبه يومى بصحبة أمها للغداء أو العشاء فى المطعم، قدمت لقضاء إجازة لمدة أسبوعين فى باريس، أعربت فى زيارتها الأولى للمطعم عن إعجابها بالطعام وطلبت من الجرسون أن ينقل تحيتها للشيف البارع، أشار الجرسون مبتسماً إلى حيث تجلس الفتاة وهو يبلغ جمال بتحيتها، وكما هو متبع فى المطاعم الراقية خرج ليشكرها بنفسه.

ردت عليه وهى تنظر إليه بإعجاب.

- أشكرك يا سيدى، لقد استمتعت بهذه الوجبة الرائعة.

- هذا يشرفنى يا سيدتى.

حيا جمال السيدتين وعاد إلى المطبخ دون أن يعلق بذهنه شىء، هذا الموقف من روتين العمل ويحدث بين الحين والآخر، ولم يكن جمال الفتاة ليحرك مشاعره كشاب يعيش فى باريس منذ أعوام وسط نماذج مبهرة من الفتيات الجميلات، كما أنه ومنذ سفره وبداية عمله فى باريس وضع أكل عيشه فى المقام الأول، فلم يُضيع وقتاً فى مصاحبة الفتيات أو اللهو بكافة أشكاله، عمل بجدية وتوافق مع العقلية الأوربية الاحترافية التى تجعل العمل القيمة الأسمى للحياة.

لم تلفت هذه السائحة بفرنسيتها المتكسرة نظره، وسرعان ما نسيها وهو ينهمك فى عمله، لكن الجديد أنها عادت بعد يومين وقالت له عندما خرج ليشكرها.

- لقد أتيت اليوم من أجلك يا سيدى..!

لم يكن جمال وسيماً بالقدر الكافى لإثارة إعجاب فتاة على هذا المستوى من الجمال، فهو متوسط الطول نحيف الجسد يميل إلى السمرة أجعد الشعر، ملامحه مصرية خالصة، له أنف كبير إلى حد ما، لكنه متناسق مع هذه الملامح التى تمتلك جاذبية خاصة بها، كأنها ملامح فنان تلفت إليه النظر من الوهلة الأولى، وتعطى الانطباع بأنه إنسان متميز.

لم يجد جمال الذى أخذته المفاجأة إلا أن يشكرها بأدب جم، ويتمنى لها إقامة سعيدة فى باريس بفرنسيته المتقنة التى تشوبها لكنة عربية لا تخطئها الأذن.

- من أى البلاد أنت يا سيدى؟

- من مصر.

- آه.. رائع بلادكم جميلة، أتمنى أن أزورها يوماً ما.

- إن هذا يشرفنا يا سيدتى.

انسحب جمال بلباقة وهو يحيى الابنة وأمها التى ظلت صامتة، وعلى وجهها شبح ابتسامة وهى تستمع إلى الحوار الدائر أمامها دون أن تفهم منه كلمة.

رجع إلى المطبخ وهو منشغل البال، لا يملك نفسه من التفكير فى هذه الإيطالية الجميلة التى أبدت نحوه هذا الاهتمام غير المتوقع.

تمكن منذ عدة أسابيع من الحصول على إقامة شرعية تعطيه الحق فى العمل براتب كامل كأى فرنسى يعمل فى نفس الوظيفة، وبدأت أحواله تستقر من كافة النواحى المادية والمعيشية، لم يعد يشعر أنه يعيش فى فرنسا كغريب، خاصة بعد انتقاله من الحى الفقير، بالطبع تظل تلك الاختلافات التى يمكن تجاوزها وغض النظر عنها حاضرة دائماً، اتخذ قرار الحياة فى هذا المجتمع لما تبقى من عمره، برغم الحنين الذى يناوشه نحو مصر وقريته الصغيرة وأهله الذين لم تنقطع المراسلات بينه وبينهم طوال هذه الفترة، يضايقه إصرارهم على عودته، وإلحاحهم عليه فى الخطابات بالنزول إلى مصر، بالطبع لابد له من السفر إليهم فى إجازة، لكن الأوان لم يحن بعد، مازالت أمامه خطوات عليه أن يقطعها ليثبت أقدامه فى فرنسا، لا يريد أن يتعجل، اعتنق مبدأ الأوربيين بأن العمل هو أهم ما فى الحياة، وأن الإنسان لابد له أن يتقن عمله ويؤديه بكفاءة وإخلاص، وإلا أصبح عالة على المجتمع ولا قيمة له فيه، بعد أن امتهن الطهى، هذه المهنة التى لم يكن يتخيل أبداً خلال حياته فى مصر أنه سيعمل بها، تكونت لديه طموحات كبيرة للتقدم فى هذا المجال الذى يلقى احتراماً كبيراً فى هذه البلاد، ويُعد فناً قائماً بذاته يحتاج إلى موهبة خاصة مثل غيره من الفنون، ساعدته الحياة فى فرنسا على اكتشاف حجم ما يتمتع به من موهبة فى هذا المجال، لم يكن يدرى عنها شيئاً وهو فى مصر، مما جعله يشعر بالامتنان لهذا البلد الذى أعطاه الثقة وأتاح له الفرصة.

طموحه يمتد الآن ويتخطى حدود العمل فى المطاعم مهما بلغ مستوى رقيها، يحلم بإقامة مطعم خاص به.. بل سلسلة مطاعم لم لا؟ يدعم موهبته بالدراسة ويخطط للحصول على جميع المؤهلات التى تكفل له تحقيق أحلامه، أصبح يفكر فى ابتكارات جديدة، أصناف وأطباق خاصة به سوف تسجل باسمه فى يوم من الأيام، منذ أن انتقل إلى شقته الجديدة بعد سفر سعد للعمل فى مدينة ليون وهو يتمتع بنوم ست ساعات كاملة لا ينغصها ضجيج الآخرين ووشهم وهم يتحركون فى غرف الشقة، كما كان يحدث طوال فترة إقامته فى الحى الفقير، ويقضى بقية يومه فى العمل المستمر، لا يتطرق إليه أى شعور بالملل أو التعب، يمر عليه اليوم بنعومة وسلاسة تجعله يستمتع بكل لحظة فيه.

فتح الله أبواب الرزق لسعد فى مدينة ليون، كان قد سافر إليها مع المقاول الذى يعمل لديه فى مهمة عمل تستغرق ثلاثة أشهر، لكنه وجد فيها مجالاً واسعاً للعمل وبراتب أكبر مما كان يحصل عليه فى باريس، فاتصل بجمال وطلب منه أن يشحن له جميع أغراضه على عنوانه فى تلك المدينة الهادئة ذات المبانى التاريخية والحدائق والأنهار المقام عليها جسور حجرية بديعة، مما يجعلها تبدو قطعة من الجنة حسب وصف سعد الذى رأى فيها المدينة الأوربية المثالية التى طالما حلم بالحياة فيها، بعكس باريس التى تبدو مقارنة بليون مزدحمة صاخبة ومليئة بالضجيج، لكن جمال الذى ساءه تهكم سعد على باريس لم يبتلع هذا الكلام ولم يصدق تلك المبررات، وظن أن سعد يخوض

مغامرة جديدة من مغامراته النسائية ولابد أنه وجد فى ليون فتاة أو امرأة...

تأتى كلوديا هذه الإيطالية الجميلة فى هذا الوقت لتضع جمال فى ورطة، قد تكون أجمل ورطة صادفها فى حياته، لكنها مشكلة على أية حال هبطت عليه من الغيب، لا يريد أن يترك باريس مدينته التى يحبها، والتى وجد فيها حظه ورسم لمستقبله فيها أحلاماً عريضة، لم يجد فيها فتاة واحدة على كثرتهن يستطيع أن يربط مصيره بها، تراجعت لديه فكرة الزواج من إحدى بنات قريته، كما تلح عليه أمه فى الخطابات، عندما تناقش مع سعد فى هذه المسألة، سخر من الفكرة وقال له ضاحكاً.

- بنات إيه يا ابنى، هى بلدنا فيها بنات، ده الواحدة فيهم بتلبس كلوت عامل زى شوال البصل!

عندما خرج مع كلوديا للمرة الأولى شعر بانجذاب شديد نحوها لم يشعر به من قبل تجاه أى فتاة أو امرأة، ظل ممسكاً بكفها طوال الوقت، وهما يمشيان، وهما جالسان، اشترى لها باقة من الزهور من أول كشك صادفهما من تلك الأكشاك الزجاجية الأنيقة التى تنتشر فى وسط باريس، فضمت الباقة إلى صدرها فى سعادة وقبلته على وجنته.

تعمد أن يخبرها أن لديه إقامة شرعية وأن حياته مستقرة فى فرنسا، كانت وفود من الشبان قد بدأت تتوافد على أوروبا من بلاد الشرق عموماً، الزواج من أوروبية إحدى الوسائل التى يستخدمونها للحصول على إقامة تكفل لهم حق العمل، أراد أن يوضح لها أنه ليس من هؤلاء الشبان الباحثين عن الفتيات، فقالت إنها متأكدة من ذلك، ثم أخبرته إنها عندما طلبت من

الجرسون أن يشكر الشيف توقعت أن يخرج لها شيف عجوز من هؤلاء الفرنسيين المتأففين، لكن خرجت أنت!
كانا يتفاهمان برغم فرنسيتها الضعيفة، رغبة كل منهما فى مد جسوره إلى الآخر كانت أقوى من حاجز اللغة، عرف أنها موظفة فى بنك، لم تدخل الجامعة وبدأت تعمل بعد انتهائها من المدرسة الثانوية، وأنها مازالت تعيش مع أبيها وأمها فى نفس البيت، ليس لديها أشقاء، أما المفاجأة التى صُدم لها ولكنها لم تترك سوى أثر باهت فى نفسه، فعندما عرف أنها تكبره بعامين برغم أن مظهرها يجعلها تبدو أصغر من عمرها بما لا يقل عن خمس سنوات.

***

صفا الجو وهدأ البحر وسارت المركب المتهالكة فى صباح اليوم التالى على صفحته المستوية بيسر، نام جلال وفرج وحولهما رفاق رحلتهما على أرضية المخزن الخشبية، كانوا قد قضوا ليلة مروعة أنهكهم خلالها دوار البحر وأصابهم الإعياء من شدة تأرجح المركب التى صعدوا على متنها بالحبال، ولم يكادوا يستقرون على سطحها حتى استفرغ معظمهم معدته، فأسرع البحارة بإدخالهم إلى المخزن الذى كان مظلماً تماماً، أشار البحارة إلى كومة من البطاطين القديمة، وأمروهم أن يخلعوا ملابسهم المبتلة ويغطوا أجسادهم بالبطاطين حتى لا يصابوا بالبرد، نفذ الشبان أمر البحارة وهم يرتجفون ثم تساقطوا بعدها على الأرضية وافترش كل منهم مكاناً كيفما اتفق وراح فى سبات عميق.

استيقظ جلال قبل الظهر بقليل، مد يده وسحب بنطلونه الجينز وتحسس مكان العشرين دولاراً، واطمأن أنها فى موضعها، فى ليلة سفرة كان قد وضع الورقتين النقديتين فى كيس بلاستيك مع صفحة كراسة كتب عليها عنوان خاله فى روما ورقم تليفونه، وطبق الكيس عدة مرات حتى أصبح مربعاً صغيراً، ثم لفه ببكرة شريط لاصق لفاً محكماً لا يسمح بتسرب الماء، ولف المربع البلاستيكى بقطعة قماش صغيرة وخيطها بالإبرة داخل الجيب الأمامى الأيسر للبنطلون، منذ خروجه من بيته فى العزبة لم يخلع البنطلون إلا فى هذه الليلة، قام واتجه إلى الكوة الصغيرة التى يدخل منها ضوء الشمس، نظر من خلال زجاجها المغبش فرأى سطح البحر الأزرق ممتداً أمامه حتى نهاية الأفق هادئاً مستوياً تنعكس عليه أشعة الشمس وهى تتلألأ، أنعشه صحو الجو وملأه بالتفاؤل وأنساه ليلة الأمس وأحداثها الدامية، شعر أن أولى خطواته نحو أوروبا تسير على ما يرام، قبل أن يغادر الكوة أطال النظر إلى مياه البحر، بعد ساعات سوف يصارع هذه المياه مجدداً وهو فى طريقه إلى الشاطئ، هذه المرة بمفرده.. بجسده المجرد، لن يكون هناك حتى هذا الزورق الصغير الذى حمله إلى المركب، تذكر الآن فقط أنه لا يعرف السباحة، ولا سبق له رأى البحر قبل هذه الرحلة، لكن لابد من وجود وسيلة يسبح بها إلى اليابسة!

أرغفة خبز يابسة وعلب جبن وفول أتى بها البحارة فى عدة سلال ووزعوها عليهم، أكلوا جميعاً بنهم وهم يعرفون أنها الوجبة الوحيدة التى ستقدم لهم على المركب، وأنهم سيقضون اليوم أو اليومين القادمين بلا طعام، بالنسبة لعدد منهم كانت تلك

الوجبة هى الأخيرة، هذا الشعور خيم عليهم وهم جالسون فى المخزن يأكلون، وفى داخل كل منهم قلق يداريه بالكلام والضحك المفتعل والصخب الذى يصل إلى حد هستيرى، تُطل من الذاكرة صور لأقارب وأصحاب خرجوا منذ سنوات مهاجرين فى رحلات مماثلة واختفوا ولم يُعثر لهم على أثر، رغماً عن كل محاولات التظاهر حاصرتهم أشباح الموتى وظلت تطوف حولهم، لم تفلح مناوراتهم بالالتفاف إلى الجانب الآخر المضىء، واستدعاء صور الذين نجحوا فى تحقيق حلم الهجرة، وعادوا محملين بالمال فى طرد تلك الأشباح، فأخذت تخرج فجأة وبعد طول نسيان من أعماق الذاكرة لتحوم بحكاياتها المفزعة ومصيرها الغامض حولهم فى فضاء المخزن.

9

نزل سعد إلى مصر فى إجازته الأولى، حضر من ليون ومر على جمال وأخبره إن البلد وحشته وإنه حجز تذكرة الطائرة وسيسافر بعد يومين، جهز جمال شنطة ملأها بالهدايا إلى جميع أفراد أسرته وسجل شريط كاسيت بدلاً من كتابة خطاب تحدث فيه إلى أبيه وأمه وإخوته وأخواته وأبنائهم.

- كيف وجدت مصر؟

- مصر أصبحت زحمة جداً، لكن الجميع بخير.

رد سعد على سؤال جمال، ثم أكمل: حسيت أنى غبت مائة سنة، كل شىء تغير وبسرعة، حوالى عشرين.. ثلاثين واحد من بلدنا تكلموا معى فى موضوع السفر، كلهم يريدون أن يأتوا إلى هنا، طبعاً أعطيتهم عنوانى وعنوانك وأرقام التليفونات، قلت لهم أننا لا نستطيع أن نساعدهم فى التأشيرات لازم يدبروا أحوالهم فى هذه المسألة، فهمت منهم أن السفارات فى مصر أصبحت تتشدد فى منح التأشيرة، تخيل أن الشبان أصبحوا يقفون طوابير أمام أبواب السفارات كالشحاذين ويعاملون معاملة مهينة من الأمن والموظفين، الحمد لله إننا نفذنا بجلدنا بدرى قبل الوساخة دى ما تحصل، كان أملى أرجع أجد مصر أصبحت أحسن لكن للأسف، صعبان علىّ الناس هناك ونفسى أساعدهم، لما سافرنا كانت الظروف أفضل من الآن، الرئيس الجديد وشه نحس، عطل المراكب السايرة وأوقف حال البلد، كما يقولون فى مصر الآن.

- أنا لم أشعر بالارتياح لهذا الرجل أبداً منذ أن كان نائباً، تبدو عليه سمات السماجة وبلادة المشاعر.
- المشكلة أنه سيبقى رئيساً إلى آخر عمره، طالما ظل الحال فى مصر على ما هو عليه!
- مشكلة الديكتاتورية التى تسببت فى خراب بلدنا، الحقيقة أنا لم أفهم ماذا يعنى نظام الحكم الديكتاتورى حتى أتيت هنا ورأيت كيف تكون الديمقراطية ودولة سيادة القانون، وقتها فقط عرفت الفارق الكبير.
- إحمد ربنا، الظاهر أننا لن نرجع أبداً، هذه خلاصة الموضوع... لن يستطيع واحد منا أن يرجع ليعيش فى مصر!
على فكرة أمى وأمك شافوا لنا عروستين أنا خلصت من أمى بالعافية، أعتقد إن أمك عندما تعرف موضوعك مع كلوديا سوف يغمى عليها، أحمد ابن أخوك فاروق أخذ ليسانس حقوق وخلص الجيش وقاعد فى البيت من سنتين، قال لى إنه دبر وسيلة للحصول على تأشيرة، تقريباً دفع فلوس، يمكن يصل هنا بعد شهرين أو ثلاثة..
استمر سعد يحكى عما لاقاه خلال أسبوعى الإجازة، وجمال ينصت باهتمام ويضحك على تعليقاته ونكاته، ثم قام إلى المطبخ ليعد غداءً من الأطعمة التى أحضرها سعد من مصر.
قال سعد ضاحكاً وهو يساعد جمال فى إعداد الغداء.
- أصروا على أن أحمل معى كل هذا الأكل، مازالوا يتصورون أن الذى يخرج من مصر يجوع ولا يجد طعاماً! هؤلاء الغلابة همهم فى الدنيا الأكل والنكاح وبعد ذلك يهون أى شىء؟!

فرح جمال بما سمعه من رغبة شبان البلد فى السفر، خاصة أحمد ابن أخيه، تصورهم وهم يعيشون معه فى نفس المدينة يعملون ويتحركون فى شوارعها ويسكنون بالقرب منه، سيزيح هذا بعضاً من شعوره بالغربة.

مازال يخطط لمستقبله مع كلوديا، اتفقا على الزواج، لكن عقبة انتقال أحدهما لمدينة الآخر تعطل إتمام مشروعهما، المفاضلة بين باريس وروما، لديها حجة أقوى من حججه، أنت تعيش لوحدك، بينما باستطاعتك أن تصبح فى روما جزءاً من عائلتى، سوف تحبهم وستعجبك الحياة بينهم، أنا وأنت سنكون وحيدين فى باريس، باستطاعتك أن تجد عملاً فى بلدى.. مهنتك رائجة هنا، تستطيع أن تحقق دخلاً أعلى مما تفعل فى باريس.. سوف ترى بنفسك عندما تأتى، أما أنا فلن أستطيع الحصول على وظيفة تعادل وظيفتى فى البنك، وربما لن أستطيع أن أجد أى وظيفة فى فرنسا.. فى روما أستطيع أن أساعدك فى الحصول على عمل جيد، أما فى باريس فمن الصعب أن تساعدنى أنت..

كانا يتحدثان فى التليفون بشكل مستمر مرتين أو ثلاث فى الأسبوع، وعدها أنه سوف يذهب لزيارتها فى أقرب فرصة، بعد سفرها بأقل من شهرين حصل على إجازة واستقل القطار إليها.

لم يرض أن يقيم فى منزلها كما ألحت عليه، بل حجز وهو فى باريس غرفة فى فندق صغير يقع بالقرب من منزلها، ظل طوال الرحلة الطويلة بالقطار متوجساً من مقابلة ألبرتو أبيها، هناك البعض فى أوروبا يكرهون الأجانب خاصة الشرقيين، لا يستطيعون المواجهة بالعداء الصريح فالقانون يمنع ذلك، لكن

نظراتهم تبث ما بداخلهم من كراهية وتعصب، يشيح الواحد أو الواحدة منهم بوجهه فى استعلاء عندما يرى أحد الغرباء فى الشارع أو المترو، وإذا اضطر للحديث مع أحد أولئك الغرباء بحكم عمله أو لأى ظرف من الظروف، فإنه يتكلم بضيق وبأقل عدد من الكلمات، إنهم قلة لحسن الحظ، وهم جميعاً ثقلاء غلاظ الطباع مثل كل المتعصبين ومكروهون حتى من مواطنيهم وبنى جنسهم.. فالعنصرية أصبحت من الصفات المرذولة بين أبناء أوروبا، بالرغم من أنهم هم الذين ابتدعوها منذ أن خرجوا من قارتهم العجوز ليستعمروا العالم.

نزل من القطار ليجد كلوديا فى انتظاره بالمحطة، استقبلته استقبالاً حاراً وأخذت تتقافز وهى تسلم عليه وتحتضنه، ذهبت معه إلى الفندق الذى حجز فيه وانتظرته حتى تسلم غرفته، ووضع حقيبته فيها ثم أخذته إلى منزلها.

وجد ألبرتو إنساناً لطيفاً بهى الطلعة كابنته، رحب به ولم يبد عليه أى تأثير لكونه عربياً مسلماً، اكتشف جمال بسرعة أن والد خطيبته رجل كثير الكلام مرح الطبع، تولت كلوديا ترجمة ما يقوله والدها، هناك البعض ممن يمتون بصلة قرابة لجده سافروا إلى مصر فى مطلع القرن العشرين وعاشوا حياة طيبة بين المصريين فى الإسكندرية والقاهرة.

لم يكن هناك صعوبة بالنسبة لجمال ليدرك أن عائلة كلوديا تعتبر بالنسبة للأوربيين من العائلات الفقيرة، ألبرتو يعمل سائق تاكسى، والأم الطيبة ذات الوجه البشوش المبتسم ربة منزل، أما كلوديا الجميلة التى تحب ارتداء الملابس الغالية وارتياد الأماكن الفاخرة مثل زملائها فى البنك، والذين تعلمت منهم هذا النمط

من الحياة فإنها تنفق على نفسها من راتبها الذى يعادل دخل والدها بما يقرب من الثلاثة أضعاف، إلى حد ما كان جمال يشعر بالفخر وهو يتحدث معهم بالفرنسية، أحس أن هذه اللغة تعطيه تميزاً ما.

علم جمال أن فريق الأبا سيقيم حفلاً موسيقياً فى روما خلال الأسبوع الذى سيقضيه فيها، فاشترى تذكرتين وهو فى باريس كمفاجأة لكلوديا التى تحب أغانيهم مثله، بعد أن قضيا يومهما يتنزهان فى روما وكلوديا تريه معالم مدينتها، ذهبا مع دخول الليل إلى الحفل، فى المسرح المكشوف وسط جموع الشبان والشابات قضيا ليلة لا تنسى، شعر فيها بالزهو وهو بجانب خطيبته التى بدت أكثر جمالاً وتألقاً من معظم الشابات حولهما، لف ذراعه حولها فوضعت رأسها على كتفه برقة وهما يستمعان إلى أغانى الأبا الرومانسية، خلال حياته فى باريس اكتسب ميزة أخرى أدرك بذكائه أنها تكسبه الاحترام فى هذا المجتمع، وهى أن يبدو دائماً أنيقاً معتنياً بأدق تفاصيل مظهره، هذه الأناقة الملحوظة، بالإضافة إلى ملامحه الشرقية، جعلته هو وكلوديا زوجاً مثيراً لانتباه الآخرين، فظلوا يختلسون إليهما نظرات تتراوح ما بين الاستغراب والإعجاب.

خلال هذه الزيارة تأكد أن كلوديا حب العمر الذى لا يمكن أن يفرط فيه، وأنها تستحق أن يترك باريس التى يحبها من أجلها، خاصة، وأنها تقدم له بديلاً لا يقل أو لا يختلف كثيراً، كما اطمأن كرجل فلاح إلى أنها تنتمى إلى بيت محترم.

***

فى الفترة التى كان جمال يستعد خلالها للانتقال إلى روما وصل إلى باريس أحمد ابن أخيه فاروق، فى حالة يرثى لها، لم تكن رحلته سهلة، فقد سافر من القاهرة إلى رومانيا وظل يتنقل متسللاً عبر المدن وحدود الدول حتى وصل إلى فرنسا، وأخيراً إلى عمه فى باريس، لم يكن بمفرده بل كان فى صحبة ثلاثة من أصدقائه ينتمون إلى العزب والقرى المجاورة.

استضافهم جمال لليلة واحدة سهروا فيها إلى ساعة متأخرة وهم يحكون له عن مغامراتهم التى استغرقت قرابة الثلاثة أسابيع، ناموا خلالها فى الحدائق ومحطات القطارات، وفى الغابات البرية التى توجد بين المناطق الحدودية، لكنهم كانوا لا يتمالكون أنفسهم من السعادة بوجودهم فى أوروبا أخيراً برغم ما عانوه، دهشة جمال وهو يستمع إليهم كانت تعادل فرحته بهم، ابتسم وهو يفكر فى رحلته إلى باريس قبل سنوات ليست طويلة إلى الحد الذى يجعل الأمور تتغير إلى هذا الوضع المزرى، أربعة شبان جامعيين يعرضون أنفسهم للبهدلة والتشرد من أجل السفر والحصول على عمل فى بلد أوربى، لو قدر له أن يسافر بهذه الطريقة لربما تراجع وفضل البقاء.. من يدرى؟ منذ أن حضر إلى فرنسا لم يحدث أن زاد سعر سلعة واحدة ولم يشاهد غول الغلاء الذى سمعهم يتحدثون عنه، غول لا يتوقف عن التضخم ويتزايد باستمرار، تقريباً جميع النكت التى تقال فى مصر وتصلهم تشير إلى وقف الحال وتعطل حركة الحياة واتجاهها نحو الأسوأ..!

فى اليوم التالى اصطحب الشبان الأربعة إلى الحى الذى سكنه فى بداية عهده بباريس، واستأجر لهم غرفتين، دفع مقدماً إيجار

شهر وأخبرهم أن قيمة الإيجار دين عليهم يجب أن يسددوه فيما بعد، ثم أعطى أحمد من الفرنكات ما يكفيه هو وأصحابه للأكل والمواصلات، وقال لهم أن يرتاحوا لثلاثة أيام يتعرفون فيها على الحى الذى سكنوه، وعلى ما يجاوره، وعلى باريس كلها، وبعد ذلك سوف يرتب لهم أمر العمل عبر معارفه وأصدقائه.

كانوا جميعهم يستمعون إلى جمال وهم منبهرون، ويتطلعون إلى ما حولهم بسعادة بينما يقفون فى الشرفة الطولية التى تمر أمام أبواب الشقق، وتطل على منظر عام يحوى الشارع الرئيسى الذى يقطع الحى وأمامه على الناحية المقابلة صف آخر من العمارات، ومن بعيد يبدو ميدان صغير تتفرع منه عدة شوارع، برغم أن جمال يعتبر هذا المكان أسوأ مناطق باريس وأكثرها فقراً ولا يجب أن يتذكر أيامه فيه، لكنهم كانوا يتقافزون فرحاً بوجودهم فيه وبسكنهم الذى بدا فى نظرهم أكثر من رائع، كانوا ينظرون إلى أيامهم السعيدة القادمة.. بالتأكيد، ظل أحمد ينظر إلى عمه الأصغر وهو لا يتمالك نفسه من الإعجاب بما طرأ عليه من تحول فى شخصيته ومظهره على السواء.

لم تكن هناك صعوبة فى الحصول لهم على عمل من الأعمال الشاقة التى توجد فى أدنى السلم الوظيفى، تلك التى عزف أهل البلد عنها؛ لما تتطلبه من جهد وساعات طويلة تتراوح ما بين اثنتى عشرة إلى ست عشرة ساعة يومياً، ولا تترك أى فرصة للمشتغلين بها للاستمتاع بالحياة، بالإضافة إلى قلة أجور تلك الأعمال بالنسبة للأوربيين من أهل البلاد.

والحكومات بدورها تغض الطرف عن المهاجرين غير الشرعيين القادمين من وراء البحر، وتتركهم يتسللون ليشغلوا

هذه الأعمال دون أن تستوقفهم، لحاجة المجتمع إلى أيدى عاملة تسد الفراغ الناشئ فى قطاع الأعمال الدنيا.
انضمت مصر فى نهاية المطاف إلى قائمة الدول المصدرة للأيدى العاملة الرخيصة، وبدأت تقذف بأبنائها على استحياء فى أول الأمر عبر البحرين، بدأ الأمر كدفقات خفيفة مثل رذاذ متناثر، ثم أخذ فى التزايد مع السنوات ليهطل بعد ذلك كالسيل على بلاد الله الواسعة.
تركهم وهو يفكر فيما أخبره به أحمد عن جده عبد الواحد الذى شاخ وكبر سنه، ألح على حفيده وهو يودعه أن ينقل إلى عمه رغبته فى رؤيته قبل أن يموت، وجعت تلك الكلمات قلب جمال وشعر بتقصيره فى حق أبيه وأمه، مرت سبع سنوات دون أن يراهم، قال لأحمد فى كلمات موجزة إنه سوف ينزل مصر قريباً.

***

لم يجد جمال أى غضاضة فى أن يتزوج كلوديا مرتين، فى الكنيسة أولاً حيث أجريت مراسم الزواج بحضور عائلتها، أبدى بعض الأقارب استهجانهم وعبروا عن عدم ارتياحهم بما ظهر عليهم من وجوم، برغم أن جمال وافق على إجراء الزواج فى الكنيسة ليرضيهم، لكن الأب والأم اتخذوا موقفاً حاسماً فى مواجهة امتعاض عواجيز العائلة، خاصة الأم التى بدت عصبية بعض الشىء فى تعاملها معهم، أما كلوديا فإن فرحتها كانت أكبر من أن تجعلها تعبأ بأى موقف مضاد يتخذه كبار السن من عائلة أمها أو أبيها، فغالبية الشباب من أولاد الأعمام والخالات فى صفها، تعاملوا مع الأمر بحيادية وصافحوا جمال مهنئين

وهم يبتسمون ابتسامة مجاملة لا تظهر حقيقة ما يدور فى داخلهم، لكنهم جميعاً رافقوا العروسين إلى الجامع الذى يقع على مسافة بعيدة، وهناك تم عقد القران وفق الشريعة الإسلامية، وشهد على العقد سعد الذى حضر من ليون برفقة صديقته الفرنسية، وتولى إمام الجامع مهمة إحضار الشاهد الثانى من بين أفراد الجالية الإسلامية فى روما، تمنى جمال لو أن أحمد كان موجوداً معهم، لكنه لم يرد له أن يجازف باجتياز الحدود بين البلدين بدون أوراق إقامة.

***

فجأة وجد جمال نفسه محاطاً بعدد من سائقى التاكسى وهم يتشاجرون حوله، وكل منهم يدعوه للركوب فى سيارته، انزعج ولم يستطع المفاضلة بينهم، فهم حتى لم يتيحوا له الفرصة ليخبرهم بوجهته البعيدة، ظل واقفاً على الرصيف العريض المواجه لصالة الوصول فى مطار القاهرة وحقيبته الكبيرة الموضوعة أمامه أصبحت موضع نزاع بين السائقين، كل منهم يحاول أن يجذبها نحوه وهو بينهم لا يدرى كيف يتصرف فى موقف بدا له فى غاية السخف والعبثية، ينادونه يا خواجة..! آخر ما كان يتوقعه، اكتشف فى محاولته للتفاهم معهم أن لسانه ثقل والكلمات لا تطاوعه بسهولة من شدة ارتباكه وتشتت ذهنه، فى المرة الوحيدة التى أتى فيها لمطار القاهرة عند سفره كانت الصورة مغايرة تماماً لما يراه الآن، فى النهاية حسم موقفه عندما لمح رجل شرطة يقف عند نهاية الرصيف، ثبت الحقيبة

الهاندباج الثقلية على كتفه، ثم شد حقيبته الأخرى ذات العجل على الأرض ومشى ناحيته دون أن يعبأ بصياح السائقين.
- ليه كده يا خواجة؟
التفت ناحيتهم بضيق قائلاً.
- أنا مش خواجة.
استمع إليه أمين الشرطة فى أدب، ثم نادى أحد السائقين من مجموعة أخرى تجلس فى هدوء على الرصيف المقابل لموقف السيارات يقرأون الجرائد ويتحدثون معاً بلا صخب، تصطف سياراتهم داخل الموقف فى مواجهتهم، أتى رجل فى نهاية الأربعينيات، تحدث معه أمين الشرطة، وأخبره فى كلمات سريعة موجزة بوجهة جمال، وسأله إن كان على استعداد للسفر معه، رد السائق موافقاً.
- أنا تحت أمر الأستاذ.
فسأله أمين الشرطة عن الأجرة، قدر جمال أن السعر تضاعف أربع أو خمس مرات على الأقل خلال غيابه، التفت إليه أمين الشرطة قائلاً فى مواجهة السائق.
- لا تدفع مليماً زيادة.
شكره جمال وبقى بجانبه، بينما ذهب السائق لإحضار سيارته، فى نفس اللحظة بدأ ركاب الطائرة القادمة من إيطاليا يخرجون من صالة الوصول ويتجمعون على الرصيف انتظاراً لأتوبيس السياحة الفاخر الذى سيقلهم، وقد ظهر من صخبهم وضحكاتهم مدى سعادتهم بالرحلة، لوح بعضهم لجمال رفيق رحلتهم، وقال أكثر من واحد وواحدة وهم يشيرون إلى سماء العاشرة صباحاً الصافية.

- إن الشمس رائعة هنا فى بلدكم يا سيدى.
- أرجو لكم إقامة سعيدة.
رد جمال بإيطاليته الطليقة والتى أتقنها بسرعة أثارت إعجاب عائلة كلوديا، خاصة ألبرتو الذى وجد فى جمال صديقاً أو ابناً، يستطيع أن يمارس معه هوايته فى الكلام وروى الحكايات والنكت التى يحب إلقاءها بطبيعته المرحة، أما كلوديا فقالت له إنك تتمتع بموهبة خاصة فى تعلم اللغات.
- نعم، نحن متأكدون إنها ستكون كذلك.
بدا الجو رائعاً بالفعل والسيارة تخرج به من المطار، وتسير فى الشارع العريض الذى تظلله الأشجار فى طريقها إلى القاهرة، رأى حياً كاملاً قد أقيم خلف الفندق الشهير المطل على الشارع، عمارات عالية انتظمت فى صفوف طولية كئيبة المنظر ذكرته على الفور بالحى الذى سكنه فى بداية إقامته بباريس، لكنه لاحظ وهو يتوغل فى القاهرة أن الشوارع أصبحت خالية من الحفر والمطبات، ومعظمها قد تم إعادة رصفه، غير أن عدد السيارات زاد بشكل ملحوظ ربما تضاعف مرتين أو ثلاث، مازالت القاهرة محتفظة برونقها وجوها فى شهر أكتوبر مشرق ويدعو للتفاؤل، بينما أوروبا تعانى من البرد والغيوم الكثيفة التى تحجب الشمس.
تبدى النيل بديعاً والسيارة تسير بمحازته فى شارع الكورنيش، تطلع إليه آسفاً أن مصر بكل ما فيها من جمال الطبيعة والجو لم تعد تتيح فرص الحياة لأبنائها الذين أصبحوا فى طليعة المهاجرين إلى أوروبا، إنهم يتزايدون بشكل مستمر لا يكاد يتوقف..

ابتعدت السيارة بعد شبرا الخيمة عن النيل متجهة إلى طريق الإسكندرية الزراعى لتدخل فى عمق الدلتا، شعر بارتياح عندما رأى الحقول الخضراء، وتنفس بعمق فأحس برائحة العوادم والدخان، منذ سنوات وهو يتنفس هواءً نظيفاً خالياً من التلوث، لا بأس ستظل مصر جميلة مهما حدث.

سفره الذى بدأ كمغامرة غير مأمونة العواقب، احتمالات الفشل فيه أكبر من توقعات النجاح، تحول إلى هجرة دائمة لا عودة منها، حياة بديلة مختلفة كل الاختلاف عن الحياة فى بلده، أصبحت له مهنة برع فيها، لم يكن ليتخيل قبل سفره أنه يمتلك مؤهلات العمل فيها، بيت وزوجة جميلة.. أجمل من نجمات السينما اللاتى كان يراهن فى الأفلام، ابنة رضيعة شقراء الشعر بعينين سوداوين ملأت حياته، لم تعد تنتمى إلى موطن أبيها وقريته التى يقترب الآن منها وتلوح له معالمها على مبعدة.

جحافل من تلاميذ المدارس يندفعون على الطريق بعد انتهاء اليوم الدراسى، خليط من الصبيان والبنات ينتشرون فى مجموعات كبيرة على الجانبين، يثيرون الغبار والضوضاء بصياح وزعيق وضحك واشتباكات جانبية تُنذر بالتحول إلى مشاجرات.. لم يتمالك نفسه من الابتسام وهو يتذكر أنهم كانوا يخرجون من المدرسة بضع عشرات سرعان ما يتفرقون، ويبتلعهم الهدوء المخيم على الزراعات منذ آلاف السنين، دون أن ينجحوا ولو لمرة واحدة فى التغلب عليه مهما تصايحوا وعلت أصواتهم.

مر بجوار المصنع الذى يعمل به صابر، بدا متهالكاً نال منه الزمن وفقد رونقه الذى كان، وتهدمت أجزاء كثيرة من سوره

وظهرت الحديقة المحيطة به من خلال الفجوات جرداء قاحلة، إلا من بعض أشجار الكافور والكازوارينا الضخمة التى تستطيع مقاومة القحط والظروف القاسية بطبيعتها، حتى مداخنه التى كانت شامخة تطاول السحاب بدت هزيلة متداعية كأنها على وشك السقوط.

تركت السيارة الطريق الأسفلتى ودخلت فى الطريق الفرعى المترب الموصل إلى القرية، شعر جمال بالغبار يكتم أنفاسه وتصاعدت رائحة المصرف القريب من الطريق، لم يكن هناك شك أنه تحول من مصرف زراعى يسحب الماء الزائد عن حاجة التربة إلى مصرف صحى مكشوف ممتلئ بمياه المجارى. أشاح بوجهه والسيارة تتهادى على الطريق ببطء، شاهد مساحات جرداء بين الحقول، تبدو واطئة عن مستوى الطريق، وهناك العديد من عربات النقل والجرارات الزراعية تقف على حافة الحقول التى ينتشر فيها فلاحون يعملون بالفئوس والمعاول، وآخرون يحملون مقاطف ممتلئة بالطين يتناولونها بالأيدى ليفرغوها فى صناديق العربات، لم يستطع تفسير ما يراه، ماذا يفعلون بالطين؟ ولماذا يُحملونه على عربات؟! أى رجل نشأ فى الريف يعرف أن هذا الطين هو الذى يعطى الأرض خصوبتها وأنه جعل الدلتا أخصب منطقة زراعية فى العالم، وأن طبقة الطين السوداء هذه تكونت عبر آلاف السنين ولا يمكن تعويضها، فلماذا يُزيلونها؟!

قال السائق من تلقاء نفسه وهو يحاول المرور من بين زحام العربات والجرارات.

- إنهم يجرفون الأرض، أول مرة أرى هذا المنظر على الطبيعة، فنادراً ما أجيء للأرياف.
- ماذا يعنى تجريف؟
- حسب ما قرأت فى الجرائد، هذا الطين يُباع إلى مصانع الطوب بأسعار غالية، الفدان يُباع بنفس ثمنه، كأن صاحب الأرض باعها واحتفظ بها فى نفس الوقت! تفكير شياطين ولا مؤاخذة!
-.....
تراجع جمال فى مقعده ولم يرد، سرح فى أفكاره وهو يتأمل موطنه ومكان نشأته بعين غير التى كان يراه بها قبل سفره، يحمل مبلغاً كبيراً من المال حصيلة سنوات من العمل، أعد فى ذهنه بعض المشاريع، يريد أن يبنى بيتاً جديداً لوالديه ويريد أن يشترى أرضاً ليجعل منها مزرعة خاصة به يقيم عليها حظائر لتربية الماشية والدواجن، يوسع بها على إخوته وأولادهم ويفتح أمامهم أبواب الرزق، لقد أسس لنفسه فى إيطاليا وضعاً متميزاً، أصبح أحد أشهر الشيفات فى روما، عما قريب سوف يفتتح مطعمه الخاص، لكنه أراد أن ينزل مصر فى إجازة طال تأجيلها قبل أن يدخل فى دوامة عمله الجديد الذى يعرف أنه لن يدع له أى وقت فراغ ولا إجازة لشهور كثيرة، اقتطع أسبوعين لزيارة أهله، خاصة وأن صحة والده لم تعد على ما يرام كما يصله فى الرسائل، يريد أن يساعد أشقاءه وشقيقاته ويرد لهم ديناً قديماً ويرى أمه التى كادت تستعطفه فى الرسائل ليأتى، فى الخطابات الأخيرة كانت تُملى على صابر فيكتب ما تقوله حرفياً، ثم يُعيد قراءته لها لتطمئن أن كلامها سيصل إلى جمال بنصه.

بعد أذان الظهر وصل التاكسى إلى حدود العزبة، ولم يعد ممكناً له أن يتقدم، فتوقف فى مكانه عند نهاية الطريق، كان هناك مجموعة من الصبية والفتيات الصغيرات يقفون منتظرين، سرعان ما التفوا حول جمال وهو ينزل من التاكسى صائحين فرحين، دفع للسائق أجرته ونفحه بقشيشاً سخياً.

- شكراً يا سعادة البيه.. حمد لله على السلامة.

شكره السائق ممتناً وهو ينظر إلى جيش الأطفال ضاحكاً، بينما أخذ جمال يحاول التعرف على أبناء إخوته وأخواته الذين تعاونوا على حمل حقيبتيه الثقيلتين وساروا حوله فى زفة كبيرة نحو العزبة، تطلع أمامه والتفت يميناً ويساراً مستكشفاً مسقط رأسه وفى نفس الوقت يعاود النظر إلى وجوه الصغار، وبعضهم قد وُلد أثناء غيابه، أخذوا يقدمون أنفسهم إليه، وكل منهم يسعى لجذب انتباهه وهو يضاحكهم ويمازحهم، لم يكن ثمة تغيرات، المكان كما هو وكما تحتفظ به ذاكرته.. حنين جارف يجتاح مشاعره، رائحة الجو تُعيد إليه ذكرياته البعيدة، يطغى عليه حنينه لأبيه وأمه فيسرع حتى يصل إلى العزبة، التى لاحت بيوتها من بعيد وهو يقترب عبر الطريق الضيق الذى يخترق الحقول، ليجد فى نهايتة عائلة عبد الواحد وقد خرجت عن بكرة أبيها لاستقباله.

ارتمى فى أحضانهم، وغمرته قبلاتهم، وتطايرت كلمات اللوم والعتاب بين الضحك والدموع والفرح والمزاح والمداعبات، والزغاريد التى انطلقت مرحبة به، وصل إلى البيت مطوقاً بالعناق، وحالة الفرح بوصوله تكاد تبلغ حداً هستيرياً، لكنه حرص على أن يظل ملتصقاً بأبيه وأمه قدر ما يستطيع حتى

عتبة البيت، استعاد رائحة الأبوة والأمومة كعبير طال اشتياقه له واستنشقه بعمق وهو يقبل أبيه مراراً ويحتضن أمه، تجمع الجيران أمام أبواب بيوتهم ليتفرجوا على الموكب ولم يلبثوا أن أقبلوا ليسلموا عليه تباعاً مما جعله يقضى وقتاً طويلاً فى اجتياز تلك البيوت التى تسبق بيتهم، ومن بينهم امرأة شابة من بيت فتحى الغرباوى وقفت تتأمل مشهد عودة جمال بمزيج من الدهشة والفضول الذى لا يخلو من حسد وهى تحمل طفلها الرضيع جلال.

بمجرد أن جلس بادرته أمه قائلة بعتاب وهى تضحك.

- عملتها يا جمال وتزوجت من بلاد بره.

فى مساء نفس اليوم قام جمال بزيارة العم عبد المعطى الذى رحب به كثيراً ليعطيه هدايا سعد، كان سعد قد أرسل له طرداً من فرنسا يحوى تلك الهدايا، وكذلك مبلغاً من المال حوله إلى البنك فى روما وضعه جمال فى ظرف، بعد أن غيره فى المطار إلى جنيهات، وأعطاه لعمه عبد المعطى فى حضور حسين والد سعد، جلس معهما لساعتين - تخللتهما عدة أكواب من الشاى ودعوة ملحة للعشاء - يجيب على أسئلتهما المتلاحقة عن ظروف حياته هو وسعد وعملهما فى أوروبا.

***

بعد أيام لاحظ جمال أن هناك شيئاً ما يدور فى الخفاء بين أبيه وإخوته، يعكر جو البيت، تلميحات وكلمات متطايرة تخرج بغير قصد أحياناً وربما بقصد فى أحيان أخرى، لكنهم برغم ذلك حرصوا على راحته وعدم إزعاجه أو تكدير خاطره، تشاغلوا به عن مشكلتهم ولو إلى حين، استمعوا إليه وهو يعرض عليهم

ما يفكر فيه من شراء أرض وبناء بيت جديد بالطوب والأسمنت مكان بيت العائلة يرتفع لأربعة طوابق.. أسعدهم حديثه ولاقى هوىً فى نفوسهم، لكنهم كانوا ينظرون له والابتسامة تعلو وجوههم وهو يتكلم ولا يخفون دهشتهم لهذه اللكنة التى اكتسبها لسانه، برغم محاولته أن يطردها بالضغط على حروف كل كلمة لتخرج صحيحة فلا ينجح إلا قليلاً، بل إن تلك المحاولات كانت تزيد لسانه ثقلاً وتعطيه لثغة، لم يلبث أهله أن تعودوها كجزء من شخصيته الجديدة التى فرضت نفسها عليهم والتى ستغير حياتهم بعد ذلك.

اتفق رأى فاروق وعامر على أن شراء أرض زراعية فى المناطق المستصلحة حديثاً، والقريبة من زمام البلد، أفضل من الشراء فى الأراضي القديمة، فالأراضى الطين أصبحت غالية، كما أن العثور على مساحة تزيد على عشرة أفدنة قطعة واحدة أصبح فى حكم المستحيل، فبعد وفاة معظم الآباء والأجداد وتوزيع ميراثهم أصبح الفدان الواحد يمتلكه أفراد عديدون، قد يزيدون على العشرة فى بعض الأحيان، مما جعل الأرض تُباع بالقيراط لا بالفدان..

قال عامر إن له صلة ببعض الناس ممن يعملون فى الأراضي الجديدة، ويمكنهم أن يذهبوا ليعاينوا المكان على الطبيعة، ثم يشتروا بعد ذلك على راحتهم، القرش صياد، ومازالت توجد مساحات كثيرة معروضة للبيع، ننتقى ونختار أحسن قطعة، والمشوار قريب فى حدود ثلاثين أربعين كيلو..

مسألة شراء عشرين فداناً لفرد من الأسرة أثارت حالة من البهجة شملت الجميع، فهو أمر سيرفع من شأنهم بين الأهالى

والجيران، وجعلت من زيارة جمال أيام فرح وسرور كأنها أيام الأعياد، لكن عبد الواحد مع ذلك ظل مؤرق البال لعلمه أن أولاده سيعاودون محاصرته والإلحاح عليه لتجريف فدانين من فدادينه الثلاثة، لو طاوعهم سوف يأتون على بقية الأرض ما عدا النصف فدان الذى تقع بيوتهم عليه، عامر صاحب التسعة أبناء، أربع بنات وخمسة ذكور، أكثرهم إلحاحاً عليه وهو الذى أقنع شقيقيه فاروق وصابر، كلهم أصحاب عيال لا تكفيهم الأرض ولا تجارة المواشى، الرزق شح وعادت أيام الفقر من جديد، فقر من نوع آخر مختلف عن فقر زمان، لكنه فقر على أية حال، زمان كان الخير كثير ولم يكن معنا المال، الآن المال موجود والخير قليل، الغلاء جعل جميع الناس فقراء، راحت البركة وضاقت الدنيا.

قام وخرج إلى جلسته تحت شجرة التوت، وترك أولاده يواصلون حديثهم، نادى على أحد أحفاده وطلب منه أن يشعل بعض الحطب ويُعد الجوزة، وقال لإحدى حفيداته كانت مارة بالصدفة، الشاى يا بنت.

إنه فى نهاية العمر الآن، عاش طويلاً ورأى الدنيا وهى تتغير من حال إلى حال حتى وصلت إلى الأحوال الغريبة التى يعيشها هذه الأيام، معظم أصحابه ورفاقه الذين صاحبهم أيام الصبا والشباب رحلوا وانطوت صفحة ذلك الزمن، وجاء زمن جديد أصعب من القديم، حتى طعم الشاى والدخان تغير ولم يعد يعدل المزاج كما كان، الشاى كالتراب والمعسل شياط مغشوش لا صلة له بدخان زمان وقت لم يكن فى مصر بضائع مغشوشة، العيال الذين ورثوا الأرض يجرفونها ويبيعون خيرها ويتركونها

بوراً لا تصلح للزراعة، وحتى لو أرادوا زراعتها بعد ذلك فإنها تعطى نصف أو ثلث المحصول ومع زيادة التكلفة، أولادى يتمنون موتى ليجرفوا مثل غيرهم، قلت لهم افعلوا ما تريدون بعد موتى، أما وأنا على قيد الحياة فلن أفرط فى مقطف طين واحد من الأرض التى سلمنى الرئيس بنفسه عقد ملكيتها، حتى صابر الذى دخل المدارس وتعلم وحصل على شهادة بفضل هذه الأرض وأصبح موظف حكومة، طاوعهم وعام على عوم أخويه طمعاً فى المال السهل، كررررر...

إنهم سعداء الآن بزيارة جمال والفلوس الكثيرة التى عاد بها، هذا الولد طول عمره رزقه واسع، ربنا يفتح عليه ويزيده، جاء للدنيا مع وقت الخير بعدما أيام الشقاء والفقر راحت، ولما ضاقت علينا وبدأ الفقر يرجع تانى ربنا أكرمه بالسفر لبلاد الخواجات، الخير عندهم كثير والفلوس كثيرة لكن بالشغل والعرق، أنا لا أستطيع أن أفهم كيف أن جمال يشتغل فى مطعم هناك ويرجع بهذه الفلوس كلها!.. ربنا يوسع عليه، هذا لا يمكن يحصل فى بلدنا، حتى بلاد العرب والمسلمين جيرانا الناس تروح هناك تشتغل وترجع بالفلوس، كأن الفقر مكتوب علينا وعلى بلدنا دوناً عن خلق الله، ورغماً عن كل ما فعله الرئيس الله يرحمه ليحارب الفقر ويرفع من حال الفلاحين، رجع لنا الفقر بعدما توفاه الله وبعد الحرب بعدة سنوات، ومع إننا انتصرنا والحمد لله لكن من يومها وإحنا بنتبهدل زى أيام الإنجليز وأظرط مش عارف ليه؟ الراجل الريس الموجود دلوقت جاء والفقر فى ديله.. أيامه سوداء، أوحش زمن عشت فيه، عدم الخير من البلد خالص، إإإيه.. ربنا كبير على كل حال، يمكن موضوع أرض جمال

والعمارة التى يريد أن يبنيها يشغلهم عن التجريف ويصرفهم عنه، أتمنى من الله، عيالهم كثير وبناتهم كبروا ولازم يتزوجوا، كل بنت ستكلف أباها مبلغاً يهد الحيل.. ربنا يكون فى عونهم، كررررر... يخرب بيت الجوزة وبيت المعسل الزفت ده!!

10

استأجر جمال سيارة أجرة خرج بها فى الصباح الباكر مع فاروق وعامر متجهين إلى الصحراء حيث الأراضي الجديدة، انتهت السيارة من الطريق المترب، وخرجت إلى الشارع فواجههم المصرف برائحته التى تزكم الأنوف.

- أليس هناك وسيلة لتطهير المصرف وتنظيفه؟

سأل جمال أخويه.

- قول يا باسط.. إحنا زهقنا من الكلام والشكوى للمديرية والمجلس!

بدا الجو ألطف عندما سارت العربة بمحازاة الترعة، مازالت الأشجار الضخمة تُظلل الطريق وتجعل من السير عليه متعة، بعد مشوار طال قليلاً بسبب الزحام، تركت السيارة الطريق الرئيسى، ودخلت إلى شارع جديد مسفلت حديثاً، لم تلبث المزارع الجديدة أن ظهرت على الجانبين، أرضى رملية تُزرع بطرق الرى الحديثة، الرشاشات وخراطيم التنقيط، الزراعات تمتد فى صفوف منتظمة، لكن خضرتها باهتة تختلف عن خضرة الأرض السوداء الغامقة الزاهية.

قال عامر من المقعد الخلفى لأخيه الجالس بجوار السائق.

- معظم هذه الأراضي تمتلكها الشركات التى تشترى بالألف فدان، هذا غير الجمعيات التى تحصل على تخصيص يبدأ من خمسمائة فدان إلى كذا ألف، رؤساء هذه الجمعيات من كبار المسئولين السابقين، لواءات ومستشارين ودكاترة وغيره، تُقسم حصة الجمعية إلى قطع، عشرة أو عشرين فداناً تُوزع على

الأعضاء، وعندما يرتفع سعر الأرض يبدأ معظم الأعضاء فى البيع، قليل منهم الذى يشترى ليزرع.
مع توغل السيارة أخذ جمال يلاحظ الفلل والقصور الصغيرة المطلة على جانبى الطريق، ومن خلفها المزارع الشاسعة، بوابات رخامية وجرانيتية ضخمة باذخة، وسيارات فاخرة تقف أو تتحرك على الطريق الهادئ، قال مازحاً.
- كأن زمن الإقطاع رجع مرة أخرى فى هذه المنطقة.
رد فاروق.
- لقد رجع بالفعل، لكن هؤلاء ألعن من ناس زمان، الواحد منهم لا يمكن أن يُعطيك لقمة ولو مُت أمامه من الجوع.
عدة سيارات دفع رباعى حديثة الطراز تقف عند بداية طريق فرعى ضيق يمتد متوغلاً بين الزارعات، قال عامر للسائق أن يدخل فى هذا الطريق، تمهل السائق وأدار عجلة القيادة وسار ببطء ليتمكن من المرور بجانب السيارات التى سدت جزءاً من الطريق، مجموعة من الخواجات يقفون بجانب الطريق وبدا أنهم منشغلون فى عمل ما، أمامهم على مقدمة إحدى السيارات ما يشبه الخريطة، يشيرون إلى مواضع معينة ويتناقشون وهم يرفعون أعينهم لينظروا إلى الأراضي المزروعة، نظر جمال إليهم مندهشاً وسأل أخويه عن هؤلاء الخواجات.
- إنهم ليسوا خواجات، هؤلاء يهود من إسرائيل، خبراء فى الزراعة، يأتون إلى هنا ليعلمونا كيف نزرع الأرض بالطرق الحديثة!
- إيه.. يعلمونا إحنا الزراعة!
علق جمال ساخرا، فضحك شقيقاه وشاركهما السائق الضحك.

قال عامر معقباً.
- لا أعرف من يضحك على من؟ هل نحن نضحك عليهم أم هم الذين يضحكون علينا؟!
فجأة ملأت الجو الرائحة الكثيفة المميزة لمزارع المواشى وإسطبلات الخيل، وبعدها ترامت على مرمى البصر مزارع العنب والموالح وأنواع مختلفة من الخضروات تُزرع بغرض التصدير، ولا يُباع منها شيء فى السوق المحلى كما قال عامر.
وصلوا أخيراً إلى مقر الجمعية، استقبلهم الموظف، الذى يعرف عامر بالترحاب، ولم يلبث أن ترك مكتبه وخرج معهم فى جولة ليعاينوا قطع الأراضي المعروضة للبيع.
أغلب القطع مازالت بكراً لم تُزرع من قبل، جرت تسوية سطحها وتقسيم مساحاتها باللوادر والجرارات ووضعت علامات لتبين حدودها، لم يستغرق الأمر كثيراً من الوقت، بعد مشاهدة عدة قطع وجدوا غرضهم، مساحة بدت نموذجية من حيث موقعها القريب من الطريق ومن المصدر الرئيسى لمياه الرى، اتفق فاروق وعامر على أنها أفضل القطع المعروضة، ولم يتردد جمال الذى كانت الكلمة الأخيرة له بطبيعة الحال فأعلن موافقته، وجد السعر مناسباً وأقل مما كان يتوقع.
وهم يعودون إلى المكتب مال عامر على أذن جمال وهمس له أن يعطى الموظف حلاوة البيعة حتى يهتم ويُسرع فى إتمام إجراءات البيع.
قال الموظف وهم يدخلون المكتب إن صاحب هذه القطعة عرضها للبيع منذ يومين فقط بعد أن وجد أن السعر قد أصبح مناسباً له، وإنه لم ير منذ أن عمل فى هذا المكان أحسن ولا

أسعد من هذه البيعة، هناك من يظلون بالأسابيع والشهور يبحثون عن قطعة أرض مناسبة لهم، وقد يجدون أو لا يجدون، كلٌ حسب نيته وضميره.

ساد جو من التفاؤل وانتعش الجميع عندما فتح جمال حقيبته وعد مبلغ العربون ووضعه على المكتب أمام موظف الجمعية، الذى سارع بإخراج الدفاتر وعقد البيع الابتدائى من الدرج، وشرع يعمل بحماس قائلاً.

- سيادتك اشتريت فى أحسن منطقة بجوار أرض سيادة المستشار رئيس الجمعية، ابن عم سيادته هو صاحب هذه القطعة، المستشار شدد علىّ أنى أبيعها لناس محترمين، وطبعاً لن يجد أحسن من سيادتك يا جمال بيه.

جلس الثلاثة معاً بعد عودتهم من المشوار، واسترسل جمال فى الحديث مع شقيقيه عما يخطط له وهو يعهد إليها بالمسئولية عن إدارة الأرض، شراء معدات زراعية حديثة وسيارة نصف نقل ليتحركا بها وينقلا عليها المحاصيل، وما تحتاجه المزرعة من أجولة الأسمدة وصناديق المبيدات والعمال وغير ذلك، ثم بناء حظائر لتربية العجول... كاد الدمع يفر من أعين فاروق وعامر ونظرا إلى أخيهما الأصغر بامتنان، أزاح جمال بكلامه عبئاً ثقيلاً عنهما وفتح أمامهما باباً واسعاً للرزق والعمل.

***

تحول جمال إلى مثل أعلى ونموذج للنجاح يتمناه كل شبان العزبة والعزب المجاورة، بعدما ذاعت أخباره وعرف الجميع ما فعله لعائلته والخير الذى بدأوا ينعمون به بسببه، أصبحوا على استعداد لبذل ما بوسعهم ليسيروا على الطريق الذى سار عليه،

داعب أحلامهم وحرك عقولهم، ليس فقط لما حققه من ثراء هائل فى نظرهم، وإنما لما طرأ عليه من تغيير فى شخصيته ومظهره الذى أصبح أنيقاً فخماً، حتى مشيته الواثقة ولكنته التى أضفت عليه طابعاً محبباً وجاذبية، كأنه من أولاد الذوات، ولم يولد مثلهم فى هذه العزبة الفقيرة البائسة.

عندما حضر سعد قبله بدا بمظهره المهلهل بسبب ملابسه الكاجول وشعره المهوش ولهجته الريفية الأصيلة وطريقة كلامه التى ظلت على حالها لم يتغير فيها شىء، كأنه مازال يعيش فى العزبة ولم يغادرها أبداً، حتى إن البعض من حقدهم أشاعوا أنه عاد بنفس البلوفر الذى سافر به، وبالرغم من أنه أغرق أفراد عائلته بالهدايا وملأ زريبة البيت بالمواشى مما أسعد حسين أباه، وساعد أبناء عماته ومدهم بالمال ليسافروا إليه فرنسا بعد ذلك، لكنه لم تكن لديه مشاريع يقدمها لأهله يساعدهم بها سوى الأمنيات الطيبة، فهو لا يمتلك الكثير من المال بسبب حياته المسرفة، والأدهى أنه بدا متأففاً ضيق الصدر ناقماً على الأوضاع التى ترك البلد بسببها وعاد ليجدها قد ازدادت سوءاً، ولم يكن يتورع عن إبداء رأيه أمام الجميع بشكل قد يكون جارحاً ومهيناً لهم، مما جعله يبدو فى نظرهم متعالياً مستعراً من أصله وبلده، برغم أنه فى داخل نفسه كان يريد أن يرى بلده تتقدم نحو الأفضل ويحبطه التدهور الذى وجدها عليه، وبدا فى نظره كطريق مستمر نحو الأسوأ ولا أمل قريب فى الرجوع عنه، بعكس جمال الذى كان كرجل عملى يتعامل مع ما يجده لا ما يتمناه، أرحب صدراً وأكثر واقعية فى تعامله مع أمور البلد

وأحوال أهلها وجميع شئونها، ولا يهتم من الأصل بتغييرها أو بما يطرأ عليها من تدهور.

حضر ابنا عامر الثانى والثالث لتوديع عمهما قبل سفره بيوم، كانا قد أعربا له عن رغبتهما فى السفر إليه، لا يملكان المال ولا يعملان عملاً محدداً، يشتغلان فى الزراعة أحياناً فى أوقات شتل الأرز ورمى تقاوى المحاصيل، وفى أقات الحصاد، كلاهما يُجيد العمل بالفأس ومختلف المعدات الزراعية بما فيها قيادة الجرارات، لكن العمل قليل، الثانى حاصل على بكالوريوس تجارة والثالث على بكالوريوس المعهد العالى للخدمة الاجتماعية، أما أخوهما الأكبر الباشمهندس إبراهيم فحصل على دبلوم معهد فنى صناعى واستطاع بوساطة أحد أصدقائه، كان زميلاً له فى المعهد، أن يعمل فى شركة بترول بصحراء مرسى مطروح، يقضى أسبوعين فى الموقع وينزل أسبوعاً إجازة، بعد سنة واحدة انتعشت أحواله، ظل يوفر مرتبه ويشترى به عجولاً وغنماً ويتركها لأهله يربونها ويعتنون بها، حتى تكونت لديه حصيلة جعلته يتقدم لخطبة إحدى بنات عمته ملكة، ومازال يدخر ويعمل ليتمكن من الزواج فى أقرب فرصة.

ومنذ أن تخرج شقيقاه فى الجامعة تباعاً، وهو يسعى لتوظيف أحدهما أو كلاهما معه فى الشركة، لكن جهوده تذهب هباءً وسط طوفان الوساطة وطلبات التعيين التى تنهال على الشركة، ويستأثر بها كبار الموظفين ويدخرونها لأقاربهم ومعارفهم ومحاسيبهم، وهو نفس الطريق الذى دخل منه إلى الشركة، بإلحاح صديقه على خاله المدير لإحدى إدارات الشركة أن يُعينهما معاً.

حاول جمال أن يثنيهما عن السفر فى البداية وقال لهما، إنه ينشئ المزرعة للعائلة ليعملوا فيها جميعهم، لكن الشقيقين الجامعيين استنكفا الفكرة من الأساس وأعربا لعمهما عن رغبتهما فى العمل بعيداً عن الأرض والزراعة التى لن تحقق لأى منهما طموحه فى الحياة، وبعد جدل ونقاش طال استمع خلاله بصبر إلى وجهة نظرهما استسلم فى النهاية لإلحاحهما قائلاً إنه سوف يرسل لهما تكاليف السفر، لكن عليهما تدبير وسيلة يسافران بها، فهو لا يستطيع مساعدتهما فى الحصول على التأشيرة، فقال أحدهما إن هناك سماسرة يعملون فى شركات السياحة ولهم صلات بموظفى بعض السفارات الأوربية، وإنه يعرف أحد هؤلاء السماسرة، واتفق معه بالفعل، لكن تدبير المال فقط هو المشكلة، فقال جمال إنه سوف يحل لهما هذه المشكلة، ثم صارحهما بعقليته العملية بعد أن قلب الفكرة فى رأسه، إنه قد يحتاج لهما ليعاوناه فى إدارة مطعمه الجديد الذى سوف يفتتحه بعد عودته، وإنهما أولى بالعمل معه من أى غريب حتى لو كان مصرياً ممن ينامون فى الحدائق ويجوبون شوارع روما بحثاً عن عمل.

فى ليلة سفره قالت أمه إنها تريد أن ترى زوجته وحفيدتها الإيطالية عندما يحضر فى المرة القادمة، فوعدها بذلك، وأكد لها إنه لن يُطيل الغيبة وسيحضر فى العام القادم لأن كلوديا تريد أن ترى مصر.

لم يسافر جمال إلا بعد أن رتب أموره فى البلد، اتفق مع مقاول على هدم البيت وإعادة بنائه من جديد بالطوب والأسمنت وتعليته إلى أربعة طوابق، وبالطبع أسند إلى شقيقيه فاروق

وعامر مهمة الإشراف على عمل المقاول ومحاسبته، وترك لهما من المال ما يكفى للبدء فى العمل، على أن يرسل لهما بقية المبلغ تباعاً.

بعد مرور عدة أسابيع على سفر جمال، تمكن الابن الثانى من الحصول على عمل فى شركة البترول، نجحت واسطات أخيه الأكبر بعد شهور طويلة من المحاولات، فتخلى عن فكرة السفر واستطاع استرداد المال الذى دفعه للوسيط بطلوع الروح، بينما ظل الأخ الثالث مستمراً فى الطريق حتى نجح فى الحصول على التأشيرة وسافر من فوره إلى عمه فى إيطاليا.

***

ما أن وصل صابر إلى الإسكندرية، ورتب أمر إقامته فى فندق متواضع لعدة أيام حتى مر على طلعت فى بيته بحى الأنفوشى، كانت عدة سنوات قد مرت دون أن يلتقيا، رحب طلعت بصديق السلاح القديم ترحيباً حاراً واستقبله بالعناق.

طلعت يعمل سمكرى سيارات منذ طفولته، وهو يجيد حرفته ويكسب منها ما جعله يمتلك ورشة بالقرب من بيته، يعمل بها عدد كبير من العمال، كالعادة اصطحب صابر إلى مطعم أسماك فاخر فى حى بحرى وتعشيا معاً، ثم ذهبا إلى أحد المقاهى فى شارع الكورنيش.

كان صابر قد علم من أبنائه بوجود مراكب أو سفن صغيرة تبحر من الإسكندرية متجهة إلى السواحل الأوربية، وأن البعض من الشبان يلتحقون بالعمل على هذه المراكب صورياً لتنقلهم إلى الأراضى اليونانية أو الإيطالية حيث يتسللون هناك خلسة ليدخلوا البلاد، ضاق صابر الذى كبر فى السن وتجاوز الخمسين

من عمره بثلاثة أعوام بإلحاح ابنه الأكبر المستميت على السفر إلى عمه جمال فى إيطاليا، كما سافر ابنا عميه وأبناء عماته من قبل.

فى داخل نفسه كان صابر يريد لابنه أن يسافر هو أيضاً ليعمل فى أوروبا، سواء فى فرنسا مثل أحمد ابن أخيه فاروق الذى حقق نجاحاً كبيراً وأصبح يمتلك شركة هناك كما يقولون، أو على الأقل مثل ابن أخيه عامر الذى سافر منذ ما يقرب من العشر سنوات ومازال يعمل فى مطعم جمال ويحقق دخلاً طيباً انعكس على حياة أبيه وإخوته، السفر إلى أوروبا والعمل فيها حقق لعائلة عبد الواحد عموماً رخاءً مشهوداً بين أهل العزبة، وجعلهم ينتقلون إلى مصاف الأثرياء، فعلى مدى السنوات الأخيرة استطاع عدد من أبناء شقيقاته السفر بحراً إلى فرنسا وإيطاليا، وجميعهم يعملون هناك ويرسلون المال بانتظام إلى أسرهم التى أصبحت تمتلك مساحات من الأراضى ومعالف للمواشى وعنابر للدواجن وتسكن العمارات الأسمنتية التى ترتفع لثلاثة أو أربعة طوابق، لكن صابر لم ينل من هذا الخير إلا القليل بطبيعة الحال، بعض المساعدات المالية من جمال وهدايا من ملابس وغيره ترسل له ولأبنائه بين الحين والآخر من أبناء أخويه وأخواته.

أنجب صابر أربعة أولاد ذكور، أكبرهم حصل على دبلوم فنى تجارى منذ سنة وأصغرهم فى الإعدادية، مازال المشوار طويلاً أمامه ليكمل تعليمهم، تزايد الغلاء جعل مرتبه الحكومى يتقلص ولا يكاد يكفى برغم حياته فى الريف الأرخص من المدن بكثير، ظل يحاور نفسه ويصارع أفكاره، ما بين رغبته فى بقاء ابنه

بجواره، وبين سفره إلى أوروبا ليراه مثل هؤلاء الذين سافروا، وتبدلت حياتهم وحياة أسرهم إلى الأفضل، فى داخل نفسه يود لابنه ذلك المستقبل، ليساعده فى المصاريف وفى تربية إخوته وينقذه من فقر المرتب الحكومى وضنك الحياة الذى جعله أفقر أبناء عبد الواحد وأقلهم دخلاً، إلحاح الابن من ناحية وحاجته من ناحية أخرى جعلته فى نهاية الأمر يميل إلى الموافقة، لكن السفر لم يعد سهلاً كما كان فى الماضى، يتطلب الكثير من المال الذى لا يملك منه سوى القليل، من الممكن أن يبيع جاموسة من الجاموستين، كما يستطيع أن يطلب مساعدة جمال فى هذا الأمر، على أن يرد له الدين بعد ذلك من عمل ابنه، مشكلة تدبير المال تعد هينة مقارنة بتدبير وسيلة للسفر.

جميع طرق السفر المشروعة انتهت وولى زمانها، السفارات أغلقت أبوابها تماماً ولم تعد تعطى تأشيرات للشبان بعد أن استنفدوا جميع الحيل ووسائل الخداع التى خالت لسنوات على موظفى تلك السفارات، من إيداع أموال فى حسابات بالبنوك، واستخراج دفاتر توفير بمبالغ كبيرة يتم سحبها وردها إلى أصحابها بمجرد الحصول على التأشيرة، إلى عمل سجلات تجارية بنشاطات وهمية، ودفع رشاوى للحصول على بطاقات حيازة أراض زراعية مزورة بملكيات تزيد عن الخمسة فدادين تُرد فور الحصول على التأشيرة إلى الموظف المرتشى حتى يمزقها بيديه ويطمئن أن العملية تمت بسلام.

اكتشفت السفارات جميع طرق التحايل والتزوير والأوراق المزيفة، ولم تعد تقبل بها إلا بعد ضمانات تؤكد صحتها عبر مجموعة إجراءات تعجيزية لا يمكن لأى شاب ممن يرغبون فى

السفر من أجل العمل أن يجتازها، كانت مصر قد صُنفت من ضمن الدول المصدرة للعمالة غير الشرعية، بعد أن اكتظت دول أوروبا خاصة المطلة على البحر المتوسط بمئات الآلاف من الشبان المصريين الذين يعملون فى الأعمال الدنيا أو من الباحثين عن عمل، ومن قبلها كانت تلك الدول قد تكدست بالفعل بالعمال المهاجرين من أفريقيا وأسيا الذين ضاقت عليهم بلدانهم ولم تعد ترغب فى استقبال المزيد منهم.

لم يبق إلا الطرق غير المشروعة، انتهى زمن الطائرات وعاد طريق البحر ليصبح من جديد أمل الفقراء فى العبور إلى حياة أفضل، هذه المرة فى الاتجاه العكسى، فى بداية القرن العشرين وما قبلها كانوا يعبرون البحر من أوروبا إلى مصر بحثاً عن فرص أفضل للحياة وللعمل، وقبلها جاءوا كمستعمرين وغزاة طمعاً فى السيطرة على ثروات البلاد وإدارتها لحسابهم، الآن عادت الكرة عليهم وباتوا يتعرضون لغزو جحافل الفقر الذى زرعوه فى مستعمراتهم القديمة.

التعامل مع سماسرة السفر غير مضمون، معظمهم نصابون وأفاقون، لا يريد صابر لابنه أن يتعرض للمخاطر ولا يريد كذلك أن يفقد ماله هباءً، فكر فى طلعت صديقه السكندرى، ربما يجد بين معارفه وأصدقائه فى الإسكندرية من يستطيع مساعدته.

لاحظ طلعت أن صابر يبدو مهموماً وهما جالسان على المقهى، ولم يكد يسأله عن أحواله حتى تكلم فى الموضوع الذى يشغل باله مباشرة، كأنه كان ينتظر الفرصة، ليس فقط طلباً لمساعدة صديقه، وإنما ليفضفض عن نفسه بالكلام ويزيح عن صدره الهم.

استمع طلعت وهو يدخن الشيشة ويشرب الشاى دون أن يقاطع صابر، ودون أن يبدو عليه الاهتمام كأن الأمر لا يعنيه، حتى إن صابر شعر وهو ينتهى من كلامه بشىء من الخجل وخالجه الندم على سفره للإسكندرية خصيصاً من أجل أمر يبدو أنه لم يكن يستحق، وعلى مصارحته لطلعت النذل ابن الكلب الذى يبتسم له ساخراً، ويبدو عليه الاستهزاء بكلامه وهمومه.

ضحك طلعت قائلاً.

- المسألة بسيطة جداً ولا داعى لهذا الهم الذى أراه على وجهك.

فوجئ صابر وتبدل شعوره فى لحظة، طلعت صديق عمره الشهم الجدع ابن البلد الأصيل الذى لن يتردد فى تقديم يد العون له تماماً كما فكر وهو يقرر السفر إليه، ولم يلبث أن تبين إن طلعت لديه معلومات وافرة عن الموضوع، وأنه يعرف الكثير من خباياه كما قال بحكم معرفته بالكثيرين من رجال البحر ومالكى المراكب، لكنه صارح صابر بأن من يعرفهم يسافرون إلى اليونان وقد نقلوا إليها عدداً كبيراً من الشبان بالفعل، أما مسألة إيطاليا هذه فربما تكون أصعب، قاطعه صابر قائلاً.

- أنت تعرف أن جمال أخويا يعيش فى إيطاليا منذ حوالى عشرين سنة، سافر بعد ولادة ابنى الكبير بسنتين، سأكون مطمئناً على الولد وهو بجانب عمه، على الأقل لن يتمرمط وينام فى الشارع، كما إن العمل سيكون مضموناً بالنسبة له.

- على كل حال نسأل ربما نجد سكة إلى إيطاليا.

لمدة ثلاثة أيام ظل طلعت يسأل أصدقاءه ويستقصى من معارفه، عرف أن هناك من يذهبون إلى الجزر الإيطالية الكثيرة، لكن الرحلة محفوفة بالمخاطر، وخطر القبض على الشبان من حرس

السواحل كبير، أما أصعب ما فى الأمر أنهم لا يرسون على الشاطئ بل يقتربون منه فقط، وفى منتصف الليل حيث يقفز الشبان فى الماء الحالك السواد؛ لأنهم يقومون بهذه العمليات فى الليالى غير المقمرة، وهم يرتدون عوامات أو سترات نجاة ويسبحون لخمسة أو أربعة كيلومترات إلى الشاطئ.

وجم صابر وهو يستمع إلى تلك التفاصيل المخيفة، ورأى ابنه وهو يقفز فى مياه البحر السوداء العميقة، فشعر بغصة فى حلقه وانقبض صدره، لعن الحال المزرية التى أصبحنا عليها والتى تدفع بإنسان شاب إلى المخاطرة بحياته على هذا النحو من أجل لقمة العيش.

سأل وقد قطب ملامح وجهه لا إراديا.

- وهل هناك من ينجحون فى هذه العملية؟

رد طلعت ضاحكاً.

- يووووه.. كثير جداً، يقفزون فى الماء ويسبحون كالقرود إلى الشاطئ، الشاب المصرى يستطيع أن يفعل المستحيل عندما يصمم على شىء، هل نسيت كيف عبرنا القناة تحت قصف القنابل وصعدنا خط بارليف الذى كان كالجبل.

قال صابر بأسى.

- كنا نحارب من أجل البلد، كان عندنا قضية وأرض محتلة لابد أن نستردها، كانت البلد فى حالة حرب ولم يكن هناك مهرب من القتال، كنا مضطرين.

- إنهم يحاربون أيضاً فى هذه الأيام من أجل لقمة العيش، هذا الجيل من الشبان فى حالة حرب أيضاً ولكن مع الفقر.

ابتسم صابر ونظر إلى صاحبه متعجباً.

- لقد أصبحت فليسوفاً يا طلعت.
- الزمن وما نراه من أحوال لم تكن تخطر لنا على بال، من كان يصدق أن مصر تصل إلى هذا الحال! لا يمكن واحد من جيلنا كان يفكر يرمى نفسه فى البحر علشان يروح فرنسا ولا إيطاليا ولا اليونان، أى واحد عايز يسافر كان يقدر يسافر بالباخرة وهو محترم، وكان يروح هناك علشان يتفسح أو بالكثير يتاجر، يأخذ بضاعة يبيعها ويشترى بثمنها بضاعة من هناك، يرجع يبيعها فى مصر ويبقى فى الحالتين كسبان وكمان يتفسح ببلاش، أما دلوقت فالحالة كُفر يا راجل.. أعوذ بالله من ده حال، على كل حال نرجع إلى موضوعنا، أنا من رأيى أن تتوكل على الله إذا كان الولد مصمماً على السفر، يروح اليونان أحسن، أنا ممكن أوصى عليه وأضمن لك أنه لن يتمرمط هناك، سيجد عملاً عند ناس أعرفهم سوف يساعدونه فى السكن وفى تدبير أموره حتى يستقر، وفى الآخر السفر نصيب والرزق على الله، ومن الممكن أنه بعد ما يشتغل ويوفر مبلغاً يطلع من هناك على إيطاليا.
- ما هو نوع الشغل هناك؟
- حسب ما أعرف إن معظم الناس هناك تعمل فى البحر على مراكب الصيد، أو فى الموانى عمال شحن وتفريغ.
ظل صابر صامتاً للحظات قبل أن يقول.
- العمل عمل ربنا، سوف أتكلم معه وأعرف رأيه.
- من ناحية المصاريف لا تحمل هماً، سأدبر له المال اللازم للسفر ثم أسترده من مرتبه عن طريق معارفى الذين سيعمل معهم، لن تدفع مليماً فى هذا الموضوع يا صابر.

- متشكر يا طلعت، أنا مستعد وجاهز للمصاريف، يمكن أحتاج فقط إنك تكمل المبلغ إذا لم يكف.
- خلاص، كما تريد، أنا تحت أمرك.
لم يتردد الابن للحظة عندما عرض عليه صابر نتيجة مسعاه فى الإسكندرية، وأعلن لأبيه موافقته الفورية على السفر إلى اليونان.
فى داخل نفسه ارتاح صابر؛ لأنه لن يضطر لطلب المساعدة من أشقائه، وهو الأمر الذى كان يثقل على صدره ويشعره بحرج بالغ ويعتبره بمثابة إعلان عن عجزه وقلة حيلته أمامهم، هدأ باله لأنه سيستطيع تدبير سفر ابنه بنفسه وببعض المساعدة من طلعت، باع جاموسة ووضع ثمنها كاملاً فى يد صديقه الذى أكمل المبلغ ورتب إجراءات العملية، استغرق الأمر بعض الوقت والترتيبات، واستلزم استخراج عدة تصاريح وشهادات حتى تمكن الابن من الصعود على متن الباخرة المتجهة إلى اليونان كأحد عمال المطبخ، وهو لا يكاد يتمالك نفسه من شدة الفرحة، وبدا له منظر البحر المفتوح عندما صعد على ظهر الباخرة وهى تغادر الميناء خلاباً ساحراً مشرقاً بالسعادة.

***

بعد منتصف الليل بساعة أو ساعتين ظهرت أنوار الشاطئ الإيطالى، بقع خافتة من الضوء تتناثر من بعيد وسط ظلام البحر، توقفت المركب وبدأ البحارة الاستعداد لعملية الإنزال، وزعوا على الشبان أفرولات بلاستيكية وطلبوا منهم أن يربطوها بإحكام عند المعاصم والأقدام ومنطقة الرقبة، ثم

أعطوهم إطارات مطاطية سوداء، تلك التى تستعمل لعجل السيارات الداخلى، إطارات صغيرة الحجم سابقة الاستعمال تنتشر عليها أورام منتفخة من أثر اللحامات العديدة.
المركب تتأرجح بهدوء على صفحة البحر الهادئة، أشار البحارة تجاه الشاطئ وقالوا للشبان وهم يعطونهم الإطارات أن ينظروا إلى الأضواء القادمة منه ويسبحون ناحيتها، الجو شديد البرودة والبحر الممتد بسواده المعتم يبدو مرعباً، لكن هذا لم يمنع أى شاب من الإقدام على القفز فى الماء، وصولهم إلى مشارف الأرض الأوروبية أثار حماسهم، المسافة التى تفصلهم عنها خطوتين لا أكثر، الحلم أصبح فى متناول اليد، تعب ساعة ولا كل ساعة، البحر لا يخيفهم، هذه الساعة التى سيقضونها فيه لن تكون أصعب ولا أشق مما واجهوه خلال حياتهم، من يعرفون السباحة منهم تعلموها فى الترع، أما البحر فبرغم كثرة شواطئه فى مصر فلم يسبق لأحدهم أن رأه.
جرب جلال عدة أطر حتى وجد إطاراً يناسب صدره العريض، لف ذراعيه حول الإطار، وتشّهد وهو ينظر إلى سواد المياه، ثم بسمل ورمى بنفسه فى البحر ومن خلفه فرج، فى أقل من خمس دقائق كان جميع الشبان قد نزلوا الماء وأخذوا يصارعون الأمواج محاولين السباحة نحو الشاطئ الذى تبين أنه بعيد جداً، أقلعت المركب فور تخلصها من حمولتها واستدارت عائدة وبحارتها يتنفسون الصعداء ويحمدون الله على أن العملية مرت بسلام.. بالنسبة لهم!
من اللحظة الأولى أدرك جميع الشبان مدى صعوبة الوضع الذى أصبحوا فيه، الماء ثلجى البرودة أصابهم بالرعشة وجعل

أجسادهم ترتجف، قوة الأمواج أكبر بكثير مما قدروا، التيار يعوق تقدمهم نحو الشاطئ ويسحبهم بضراوة إلى عمق المياه المفتوحة، بدأوا محاولاتهم المحمومة للسباحة تجاه الشاطئ فور نزولهم البحر، المجهود البدنى الشاق ورفس الماء بالأرجل والأقدام والأذرع يضيع هباءً، الأمواج تتلاعب بهم، والرياح تحمل الإطار وتقذف به وبصاحبه بعيداً إلى الوراء.

البعض انقلب به الإطار ليجد جسده ورأسه تحت الماء، فقاوم بشراسة ودافع بكل أطرافه ليكافح الماء ويعتدل، بينما الإطار العالق على السطح يعوقه، خلال حركة الجسد الهستيرية بحثاً عن الهواء ينزلق الطوق المطاطى، وقبل أن يتمكن صاحبه من الإمساك به يطير مع الهواء، الموج العنيف يدفع بالماء المالح داخل فتحات الأنف والأفواه فيشهق أصحابها، ويضرب الوجوه بعنف، ويكوى العيون بملوحته فلا تستطيع الرؤية.

11

بينما كان عبد الواحد جالساً جلسته المعتادة، بعد صلاة العصر، يشرب الشاى ويدخن الجوزة ببطء وبتمهل رجل فى السابعة والثمانين من عمره، شعر بإعياء، منذ سنوات وهو يجلس وحيداً بعد رحيل رفاقه جميعاً، يفتقدهم ويفتقد أيامهم، وأصبح كثيراً ما يبكى فجأة عندما يتذكرهم ويتذكر زمن شبابه ورجولته، زمن الخير الذى ولى ولن يعود، بعدت به الأيام وطول العمر عن الصحبة وجلسات السمر حتى بات يرى فى كل من هم دون السبعين عيالاً، لا يصح له أن يصاحبهم أويجالسهم مجالسة الند للند.

تحامل على نفسه وقام متثاقلاً ليدخل البيت، لكنه تعثر وأوشك أن يسقط على الأرض، سارعت بعض حفيداته إليه فتساند عليهن وهو يجر رجليه حتى وصل إلى سريره.

لم يكد صابر يرجع من الإسكندرية ويدخل بيته، بعد أن ودع ابنه فى ميناء الإسكندرية، حتى جاءه أحد أبناء أخواته يبلغه أن جده عبد الواحد مرض فجأة منذ ساعة، وأنه قد يكون ينازع الموت الآن، جرى صابر ووصل إلى بيت أبيه واتجه إلى حجرته، فوجد شقيقيه هناك بجانب سرير الأب، كانت أمهم تجلس فى أحد الأركان تتابع الموقف بعينيها ودموعها تجرى فى صمت بينما تجمعت الشقيقات عند الباب يترقبن ما يحدث وهن ينهنهن بالبكاء.

قال الطبيب الذى أتى من الوحدة الصحية إنها جلطة شديدة فى المخ، وأعد حقنة وأعطاها لعبد الواحد، ثم أبلغ أبناءه إن الحالة

خطرة، لكن أباهم من الممكن أن يتجاوزها إذا مرت الأربع والعشرون ساعة القادمة على خير، لكن فى فجر اليوم التالى توفى عبد الواحد وبناته وأبناؤه إلا جمال حوله، بينما الكثيرون من أحفاده يعيشون فى أوروبا.

مات عبد الواحد وترك لأولاده ثلاثة أفدنة طين من الأرض السوداء التى بلغ ثمنها سعراً فاحشاً، كان أوان التجريف قد مضى، ولم يعد باستطاعة فاروق وعامر وصابر تنفيذ رغبتهم القديمة، لكنهم اتفقوا مع شقيقاتهم على بيع معظم مساحة الأرض وتوزيع ثمنها بدلاً من الدخول فى متاهة تقسيمها عليهم، كان كل من فاروق وعامر على أعتاب الشيخوخة وينعمان بحياة رغدة بفضل أولادهما، أصبح لكل منهما أملاكه الخاصة، ولم يعودا بحاجة إلى أرض أبيهما الشرك إلا القطعة التى يسكنان عليها، اتفقوا جميعاً على البيع ووجدوا المشترى، لكنهم ظلوا فى انتظار جمال الذى كان حضوره لازماً لإتمام إجراءات البيع.

***

منذ اللحظة الأولى بدا كل شىء مختلفاً، كل المظاهر بمجرد الدخول إلى صالة المطار تقول بوضوح، أنت فى دولة من دول العالم الثالث الفقيرة، مثل جميع هذه الدول تستطيع الحصول على ما تريد إذا كنت تملك المال، الفقراء لهم الجنة بعد عمر يطول أو يقصر لا يهم! أما الأغنياء فهم فقط الذين يعيشون على هذه الأرض، هناك خدمات متميزة لكنها باهظة الثمن بالنسبة لأهل البلد برغم أنها تعتبر عادية وفق الأسعار العالمية، تستطيع أن تذهب مباشرة إلى المنتجعات الفاخرة وتستمتع بحياة مترفة على الشواطئ الكثيرة البعيدة التى لا تربطها صلة بحياة الناس

داخل البلاد، تستطيع القيام بجولات سياحية تتفرج فيها على معالم البلد وأثارها من داخل السيارات الحديثة الفاخرة ذات الزجاج الأسود، تتمشى كما تشاء تحت الحراسة التى تضمن لك أن البؤساء من أهل البلد لن يقتربوا منك، ناهيك عن أن يتسببوا لك فى أى إزعاج، لن ترى بأى حال مظاهر الفقر وأكوام القمامة والأحياء التى يقطنها بشر معدمون يعيشون فى بيوت متداعية داخل أزقة لا تدخلها الشمس، فى هذه البلاد تستطيع أن تشترى البشر أنفسهم، فكل شىء هنا قابل للبيع، تشترى من يحرسك ومن يخدمك ومن يقضى لك ما تشاء من احتياجات، حتى لو كانت غير قانونية أو غير أخلاقية أو حتى غير إنسانية، ففى البلاد التى هرسها الفقر بحذائه الغليظ يُعد المال هو السيد الأكبر، أمامه ينحنى الجميع.

جمال الذى يمتلك ثلاثة مطاعم فى روما وحدها، والذى زار الكثير من بلاد العالم فى السنوات الأخيرة، تكونت لديه خبرة السائح الأوربى الثرى المعتاد على السفر والتجوال بين بلاد العالم فى الإجازات كأنه سيد هذا العالم والإنسان الأكثر أهمية فيه، عندما ينزل مثل هذا الرجل دولة من دول العالم الثالث تتكشف أمامه خبايا وأسرار عن الحياة فى هذا البلد، لا يعرف مواطنوها أنفسهم شيئاً عنها، السماسرة والقوادون وتجار الممنوعات والمحرمات يعرفون طريقهم إليه، ويملكون الوسائل لعرض خدماتهم وبضاعتهم عليه عبر شبكات واسعة من العمل السرى يدخل فيها موظفون رسميون ورجال شرطة.

لاحظ جمال وهو يجلس فى المقعد الخلفى للسيارة الليموزين الفاخرة التى استأجرها لتقله إلى قريته، وبجانبه كلوديا بثوب

الحداد الأسود فى ثانى زيارة لها للقرية مسقط رأس زوجها، أن صورة الرئيس المبتسم أصبحت تتصدر المشهد وتتوزع على لوحات كبيرة فى كل مكان بشكل مستفز، لا يوجد إلا فى الدول التى ترزح تحت حكم ديكتاتورى ثقيل.

كانا قد زارا مصر مرات عديدة من قبل فى إجازات استجمام على شواطئ شرم الشيخ والغردقة، هذه الرحلات لم يعتبرها جمال زيارات سفر إلى مصر حيث لم يمرا على القاهرة، وحرص أشد الحرص ألا يعلم أهله عنها شيئاً حتى لا يعدوها نقيصة فى حقه، كانت الطائرة تهبط بهما مع الفوج السياحى الإيطالى فى مطار شرم الشيخ أو الغردقة، ويسافران بعد انتهاء الإجازة إلى روما مباشرة، فى مدينتى الشواطئ كان يرى مصر أخرى غير التى يعرفها ونشأ فيها، أنشئت للأوروبيين وأثرياء المصريين، بلداً غير التى يمر فى شوارعها المزدحمة الآن والتى تختنق من شدة تكدس البشر.

قالت كلوديا وهى تنظر من زجاج النافذة إلى طوابير السيارات والبشر الذين يملأون الشارع ويغطون الأرصفة بينما السيارة تزحف ببطء شديد وسط الزحام.

- أشعر كأننا فى الهند!

بالطبع لم يحمل كلامها أى معنى للسخرية أو الانتقاد، كانت مجرد ملاحظة عابرة، لكن جمال استاء منها وامتعض للمقارنة، وقال كأنه يدافع عن تهمة.

- لم تكن مصر كذلك! لا أعرف ما الذى جرى لها؟

- وأنا أيضاً، لم أرها كذلك فى المرة السابقة.

بعد مشوار طويل وصلت السيارة إلى أول الطريق الزراعى الذى يخترق الدلتا، حدق جمال فيما حوله غير مصدق، إنه الطريق كما يعرفه لكن المكان لم يعد هو، لا توجد زراعات! ولا حقول! أين ذهبت الغيطان والأرض الخصبة السوداء التى تكسوها الخضرة؟ لا يرى إلا مبانى متراصة على الجانبين، عمارات أسمنتية على طول الطريق، تلوح بينها على استحياء بقع خضراء بين الحين والحين، أين ذهب الفلاحون؟ أين السواقى ومواتير الرى والجاموس والبقر والحمير؟ أين بهجة الريف وجماله؟

فى زيارتها الأولى كانت كلوديا تنظر بإعجاب إلى ما تراه فى مصر وتنبهر حتى بالأشياء العادية بالنسبة إلى زوجها، كان منظر السواقى التى مازالت المواشى تدور بها وحقول البرسيم الخضراء وهى تمتد حتى نهاية الأفق رائعاً فى نظرها، حتى الحمير وهى تسير براكبيها على جانبى الطريق عندما توغلا فى عمق الريف، تجمعات البيوت الطينية المطلية باللونين الأبيض والأزرق وأشجار النخيل تحف بها، أصرت يومها أن توقف سيارة التاكسى لتلتقط لها بعض الصور، وجمال يقف بجانبها سعيداً يمازحها ويضحك، ثم أرادت أن يصورها وهى تحمل ناديا ابنتهما وفى خلفيتها النخيل والبيوت، كانت أول مرة ترى أشجار نخيل حقيقية كما قالت.

فى هذه الرحلة انبهرت كلوديا بالريف، كان إخوة جمال قد جهزوا له شقة الدور الثانى ليقيم فيها عندما ينزل مصر، مما جعل الإقامة مريحة لكلوديا وابنتها الطفلة، كانتا محل ترحيب جميع أهل العزبة وهما يتمشيان بين الحقول، وحولهما جمع من

أبناء إخوة جمال الذين جاءوا لها بحمار مجهز بسرج مريح لتركبه، وكانت فرحتها طاغية وهم يسحبونه بها فى جولات طويلة، تمر عبر الحقول على عزب القرية حتى تصل بهم لنهاية أراضيها، أكلت كلوديا الفطير بالقشدة والعسل والجبن القديم، والفول والطعمية والملوخية والحمام المحشى وكل الأطعمة التى لا تعرفها فى بلدها، إلى حد التخمة، حتى زاد وزنها خلال الأسبوع الذى قضته فى القرية، سافرت بعد أن تركت أثراً لا ينمحى فى مخيلة شبان القرية بأسرها، سواء القلة من الذين تحدثوا معها وساروا بصحبتها بحكم صلة القرابة أو الآخرون الذين رأوها من بعيد وحسدوا أحفاد عبد الواحد على صلتها بهم، تبدت لهم كحلم رائع هبط عليهم من السماء وأشعل فى نفوسهم فكرة السفر وعبور البحر إلى البلاد التى بناتها جميعهن جميلات ساحرات مثلها، لكن هذا لم يمنع البعض خاصة من الرجال الأكبر سناً أن ينظروا بامتعاض إلى الأمر وبشىء من الاشمئزاز، بسبب الفكرة الراسخة فى أذهانهم عن زفارة دم بنات الخواجات، ورائحة أجسادهن المثيرة للغثيان، بل إنهم لم يروا فى كلوديا أى سمة من سمات الأنوثة الحقيقية كما يعرفونها فى نسائهم، حتى إنهم لم يعتبروها جميلة من الأصل، كان عبد الواحد يجد فى نفسه هذا الشعور تجاه زوجة ابنه، برغم أنه وجدها طيبة الرائحة وتضع على الدوام عطوراً تعبق مندرة البيت بشذاها، لكنه تغلب عليه ونحاه جانباً وأظهر لها كرم الفلاحين وسماحة طباعهم وهو يرحب بها فى عائلته، وتعامل معها بكل ما يستطيع من مودة، أما نساء العائلة وفتياتها فبرغم ضحكهن مع كلوديا وبشاشتهن فى وجهها، كن يضمرن

فى أنفسهن الحسد لها، ويتندرن عليها فيما بينهن، ويسخرن من بشرتها الباهتة الخالية من الدموية، ومن نحافتها وسيقانها الرفيعة التى تشبه عصى المقشة، ويتغامزن ضاحكات وهن يتهامسن.

- هى دى فيها حاجة تتمسك!

لكن الشباب كانوا ينظرون من وجهة نظر أخرى، هذا العالم البعيد الذى أتت منها كلوديا، حيث توجد بلاد يستطيع الإنسان فيها أن يعمل ويكسب الكثير من المال ويرجع إلى بلده متباهياً سعيداً مثلما فعل جمال، تزاحموا حوله يطلبون مساعدته ويلحون عليه، كأنه يملك مفاتيح السعادة والمال، الصلة التى تربطهم به بدت فى نظرهم كأنها الطريق السحرى للخروج من الأزمات التى يعانون منها، ضنك حياتهم وضيق عيشهم وقلة رزقهم، إلى بلاد الله الواسعة.

اندفع العشرات من الشبان من جميع عزب وبيوت القرية، بعد زيارة جمال وزوجته، إلى محاولة السفر بكل الوسائل المتاحة، البعض منهم كان يعتقد من شدة حماسته أنه لو ألقى بنفسه فى البحر لاستطاع عبوره سباحة حتى الشاطئ الآخر، عبر طرق وعرة ومخاطر لم تكن فى الحسبان، اجتازوها باستهانة وجرأة مدفوعين بالأمل والرغبة العارمة فى الخروج من عزبهم وقراهم، تسللوا براً وبحراً وجواً، ونجح الكثيرون منهم فى الوصول بالفعل إلى مدن أوروبا.

تلقى جمال خبر وفاة أبيه بثبات كأنه أمر متوقع، اغرورقت عيناه بالدموع لكنه لم يبك، لقد عاش أبوه عمراً مديداً حتى رأى

أولاد أحفاده وحفيداته، ساعتها بكت كلوديا وهى تتذكر حماها الطيب ووجهه البشوش واحتفاءه بها.
تغيرت الأوضاع كثيراً وبسرعة مثيرة للدهشة، الزحام والفقر أصبحا سمة الشارع فى مصر، هناك تراجع لا يخفى على عين الزائر التى ينظر بها جمال إلى أحوال بلده، الفارق يتسع بضراوة بين ما يراه فى أوروبا وما يجده الآن، فوضى مرورية وحالة غياب القانون واضحة على حركة السيارات بجميع أنواعها، السائقون يقودون بعدوانية وعصبية تعكس ما يعانونه من ضغط الزحام وضيق الطريق والحياة نفسها عليهم، وبسرعة مخيفة ورعونة تجعلهم يقتربون بسياراتهم المسرعة من بعضهم البعض دون أى خشية للحوادث، كأنهم لا يعرفون أو لا يدركون خطورة ما يفعلونه، أو يدركون ويرغبون فى الانتقام من أنفسهم ومن الآخرين بالوصول إلى حد الخطر، كأنهم يتحدون الموت ويتلاعبون بمصائرهم أمامه عابثين أو غير عابئين بما يصيبهم استهانة وغضباً وحقداً وزهقاً.
السائق المحترف الذى يقود السيارة الليموزين ويرتدى بذلة كاملة، يسير بسرعة معتدلة، ولا يغامر بتجاوز السيارات البطيئة إلا بتعقل خاصة مع سيارات النقل الثقيل، يمر بجانبها بحذر ومهارة، وبعد أن يتأكد أن الطريق أمامه خالياً، لكن جمال مع ذلك ظل قلقاً وهو يراقب الطريق، تذكر تلك الأيام فى السبعينيات عندما كان فى الجيش، وقتها كان السفر على هذا الطريق، ومجرد الخروج إليه من عمق الريف حيث تقع قريته وعزبها، متعة من متع الدنيا، ظل خلال صباه يحلم بالجلوس على واحدة من الكافيتريات المطلة عليه ليشرب كوب شاى أو

زجاجة مياه غازية، لم يتحقق له هذا الحلم إلا بعد دخوله الجيش، كان ينزل من سيارة الأجرة عند مدخل الطريق الفرعى الذى يصل إلى قريته، ويتجه إلى الكافيتريا التى تبعد نصف كيلو وهو بملابسه العسكرية ليجلس ساعة قبل أن يواصل مشواره، هذه الاستراحات اللطيفة التى كان الإنسان يرتاح فيها من طول الطريق، ويستمتع خلال جلوسه بجمال الريف وهدوئه، يراها الآن خرائب مهملة برغم أنها تغص بروادها، ويقف أمامها عدد كبير من سيارات النقل بمختلف أحجامها.

مر أسبوع على وفاة والده، لم يكن ممكنا له أن يسافر فور تلقيه الخبر، يحمل هم مقابلة أمه وإخوته خاصة شقيقاته، هم دخول البيت لأول مرة دون وجود أبيه فيه، يعلم مدى شدة الحزن على الموتى فى مصر وصرامة التقاليد المتوارثة فى هذا الشأن، وفترة الحداد الطويلة التى تصل إلى أربعين يوماً، يُمنع فيها سماع الأغانى أو فتح الراديو أو التليفزيون.

السيارة تقترب من القرية، كلوديا تمسك كفه بيدها وتضغط عليها مواسية، لأول وهلة بدا أنهم ضلوا الطريق، ليس هو طريق القرية التى تقع العزبة فيها، المعالم ليست هى، العلامات الدالة على المكان تغيرت، كأنه يدخل بلدة أخرى، إنه بالفعل يدخل حياً سكنياً فى إحدى المدن، ليست قريته التى يعرفها، عدد كبير من المحلات التجارية والمقاهى تقبع فى المدخل الضيق الذى ينتهى عنده الطريق، تليها صفوف عمارات سكنية من أربعة أو خمسة طوابق تطل على حوارى ترابية، فى آخر زيارة له كانت هذه الأرض حقولاً، ولم يكن هناك إلا عدد محدود من البيوت الأسمنتية معظمها ملك الذين سافروا إلى دول الخليج والعراق،

وهى لا ترتفع إلا لطابق أو طابقين، العمارة التى بناها هو محل بيتهم القديم كانت أعلى بناء فى العزبة بأسرها، ابتسم وهو يرى أسماء المحلات التى ترتفع فوق اللافتات، جميعها تقريباً أسماء إيطالية، هناك عدد من الشبان الذين عبروا البحر، عادوا بعد أن عملوا لعدة سنوات جمعوا خلالها ما يكفيهم من المال، هؤلاء سافروا من أجل تحسين ظروفهم المادية فقط ولم يرغبوا فى العيش بعيداً عن بلدهم، يعرفهم كلهم، جميعهم مروا عليه فى البداية بعد نجاحهم فى الوصول إلى روما، ساعدهم فى الإقامة وفى العمل، كثيرون منهم عمل لبعض الوقت ولفترات طالت أو قصرت فى أحد مطاعمه، هاهم يلمحونه وهو ينزل من السيارة فيخرجون من محلاتهم، ويسرعون نحوه مرحبين ومعزين فى نفس الوقت، ويسلمون على كلوديا بالإيطالية.

لم يستطع أن يتمالك نفسه من البكاء وهو يحتضن أمه، اقتحمته ذكرى ابيه بمجرد أن رأى شجرة التوت الكبيرة، للحظة بحث عنه بعينيه كأنه سوف يجده جالساً على دكته تحتها، فى هذه اللحظة تمثل له موت أبيه كحقيقة واقعة، توقف لثوان وأمعن فيها النظر قبل أن يمر من الباب إلى صالة الدور الأرضى حيث تجلس أمه، انحنى ليسلم عليها ويحتضنها، بمجرد جلوسه لاحظ فيما عدا ملابس الحداد السوداء التى ترتديها شقيقاته وبناتهن أن الحركة فى البيت أقرب للعادية، أدهشه أن يجد التليفزيون مفتوحاً والصغار يتفرجون عليه، من الكلام الدائر حوله فهم أن الحداد لم يعد يتجاوز الثلاثة أيام، اكتشفوا مؤخراً أن طقوس الحزن القديمة حرام، وأنها لا تمت للدين بصلة، سكت ولم يجادل ربما معهم حق!

بالنسبة لرجل لا يفكر فى العودة للاستقرار فى بلده، فإن امتلاك أراض ومشاريع أياً ما كانت يعد ضرباً من العبث، ظلت هذه الفكرة تُلح على عقله، هو تقريباً لم يحقق أى ربح من مزرعته، صحيح إنها سترت أباه وعائلته لفترة طويلة، لكن العائد كان يكفيهم ويغطى مصروفاتهم بالكاد، حسب ما فهم منهم أن الارتفاع المستمر لأسعار الأسمدة والمبيدات والتقاوى وتكاليف الزراعة بشكل عام، جعل ما يتبقى من ربح فى النهاية يسد رمق العائلة الكبيرة العدد بصعوبة، حتى تربية الدواجن والمواشى لم تعد مجدية هى أيضاً بسبب غلو الأعلاف بشكل فاحش، مما جعل ذلك العمل عرضة للخسارة بشكل دائم، مما لا شك فيه أن قيمة أرض المزرعة تضاعفت عدة مرات وهو ما جعل شراءه لها فى نهاية الأمر يُعد استثماراً جيداً، لكنه بعد وفاة أبيه يشعر بأنه لم يعد بحاجة إليها، شعر بحرج من الكلام فى هذا الأمر مع إخوته، لابد أن قراره بالبيع سيثير حنقهم، فهم لا هو المستفيدون منها، خاصة فاروق وعامر، لكنه فى المقابل ساعد أبناءهم كذلك حتى انتعشت أحوالهم... إن غاية ما يريده من أملاك فى قريته هو هذه الشقة التى يجلس فيها الآن، مكان نظيف مجهز ليقيم فيه عندما يأتى لزيارة البلد... أما غير ذلك فمضيعة للوقت والمال، من التجارب الكثيرة التى سمع بها من أصدقائه ومعارفه المصريين فى روما، أصبح على يقين أن محاولة الاستثمار أو إقامة مشاريع فى مصر بالنسبة للمغتربين محكوم عليها بالفشل لأسباب عديدة! لم يستطع واحد منهم برغم نجاحه فى أوروبا أن يتعامل مع الواقع المصرى بتعقيداته وقوانين السوق والتجارة التى تحكم سير العمل به، بما فيها من غموض ودهاليز سرية

وطرق ملتوية، لم يعد بمقدورهم بعد حياتهم فى أوروبا فهمها، ناهيك عن التعامل معها، حتى لو أعطوا إدارة هذه المشاريع لأقاربهم أو إخوتهم، لابد أن تقف بنفسك وتدير أموالك وأنت تعيش فى مصر، وإلا لن تجنى شيئاً، هذا لو نجوت من الخسارة.

لم يكن يعلم أن إخوته يتشاورون بدورهم فى مسألة بيع الفدانين والنصف وتقسيم الثمن عليهم، لكنهم يخجلون من عرض الأمر عليه، كانوا برغم أنه أصغرهم يهابونه ويدينون له بالفضل فى كل ما ينعمون به من خير، ولا يحبون أن يزعجوا خاطره، لكنهم فى نهاية الأمر حسموا ترددهم بسرعة وبدافع من الشقيقات الثلاث المتلهفات على المال حتى ينتهوا من الإجراءات خلال الأيام التى سيقضيها بينهم قبل سفره.

***

فى بدء تكوين عزبة عبد الواحد، كان من المعتاد أن يقطنها ما يقرب من الثلاثين عائلة يعمل أفرادها جميعاً فى الزراعة، حتى سبعينيات القرن العشرين ظل وضع العزبة مستقراً برغم زيادة عدد عائلاتها إلى الضعف، ثم بدأ معدل زيادة السكان فى النمو بمعدلات لم تعد معها الزراعة ولا زمام الأراضى التابعة لها تستوعب المزيد، وبرغم جميع القوانين التى تمنع البناء على الحقول وتحويلها إلى أراضى بناء، توغل الأهالى فى الزراعات يقتطعون منها على استحياء فى أول الأمر، ثم بضراوة مع ارتفاع معدل الخصوبة إلى أعلى معدلاته، ووصول عدد عائلات العزبة إلى ما يزيد على المائتين عائلة، توسعت بمساكنها وزرائبها ودكاكينها ومخازنها ومقاهيها ومحلات

إصلاح الماكينات والسيارات وورش الصناعات الصغيرة كالحدادة والنجارة لتحتل أضعاف المساحة القديمة، وهو ما جعل تلك العزب تتحول مع نهاية القرن العشرين إلى ما يقارب الأحياء السكنية فى المدن.

جميع أنواع الحرف والمهن والوظائف لا تكفى، بالإضافة إلى الأراضى الزراعية التى هى أساس العمل فى الريف، لاستيعاب أعداد الشبان التى لا تتوقف عن الزيادة، الخروج إلى بلاد الله، والانتقال من الأرض بدا الحل الأفضل، وربما الوحيد فى كثير من الأحيان.

أسهمت عزبة عبد الواحد فى فتح منافذ خروج لشباب القرية بجميع عزبها، بالسفر إلى أوروبا من ناحية، ثم بالعمل فى شركات البترول من ناحية أخرى، استطاع إبراهيم ابن عامر الأكبر بعد أن ترقى أن يسحب عدداً كبيراً من شبان العزبة للعمل فى حقول البترول بالصحراء الغربية، وهؤلاء بدورهم لما استقر بهم الحال استطاعوا توظيف عدد آخر من أقاربهم ومعارفهم على مستوى القرية بأسرها، لكن مع ذلك ظل هناك الكثير من العاطلين بفضل الأعداد اللانهائية للأطفال الذين يولدون بلا توقف، وسرعان ما يتحولون إلى شبان لهم مطالب وطموح فى العيش وحاجات إنسانية لابد أن تلبى، وتضيق عليهم الأرض بنفس معدل سرعة تزايدهم.

فوجئ جمال بوجود ليندا فى العزبة، سيدة فى نهاية الثلاثينيات من عمرها، بدينة إلى حد ما، من الوهلة الأولى عندما شاهدها تسير برفقة شاب من أبناء العزبة عرف أنها تنتمى إلى إحدى بلدان أوروبا الشرقية، استوقفه المشهد غير المألوف، وعرف

بعد ذلك أن ابن أخت سعد الذى سافر منذ سنوات إلى خاله فى فرنسا بعد أن أعيته الحيل فى استقدام أخيه الأصغر وتسفيره إليه، قد أرسل له هذه المرأة التى هاجرت من تشيكوسلوفاكيا واستقرت فى فرنسا ليتزوجها مقابل مبلغ من المال، على أن تحصل له على تأشيرة السفر وتصحبه معها إلى أخيه، كان الناس يتندرون فى العزبة على أن الأخ الصغر الذى مازال فى الثالثة والعشرين من عمرة قد فرح بالمرأة البيضاء وزواجه منها، ربما بأكثر من فرحته بموضوع السفر نفسه.

نزوح أهالى أوروبا الشرقية إلى بلاد أوروبا الغربية المجاورة لهم، بدأ بعد انهيار منظومة الشيوعية وتحول إلى ظاهرة ملموسة فى دول السوق الحر، آلاف المهاجرين الذين أنهكهم الفقر والاستبداد وقمع النظم الشمولية، التى أضاعت عدة أجيال تحت دعاوى حلم العدالة الاجتماعية ووهم المساواة بين الفقراء والأغنياء بالمصادرة والتأميم، وسيطرة الدولة على حياة الشعوب بالبوليس والأجهزة الأمنية والمخابراتية، تدفقوا على الدول الغنية القريبة بحثاً عن فرص أفضل للحياة، وهرباً من الخراب الذى حل ببلادهم، هؤلاء شغلوا الكثير من الوظائف والأعمال التى كان يقوم بها النازحون من دول أفريقيا وأسيا الفارون من البؤس والبطالة والزحام والجوع ونظم الحكم الاستبداية ونافسوهم عليها، بالطبع فضلت دول أوروبا الغربية أبناء قارتهم على القادمين من خلف البحار الذين ينتمون إلى أعراق وأجناس وأديان أخرى، وأخذت تُضيق عليهم السبل وتُحكم قبضتها على منافذ تسللهم براً وبحراً بعد أن أغلقت قبلها طريق الجو تماماً.

برغم كل شيء فإن هؤلاء الأوروبيين الشرقيين جميعهم متعلمون حتى نهاية المرحلة الثانوية، على الأقل بحكم قوانين بلادهم التى وفرت التعليم المجانى لهم وجعلت الالتحاق بالمدارس إجبارياً، كما أنهم أكثر مهارة وحرفية ويأتون عادة وهم يتقنون مهناً محددة ويؤدون عملهم بكفاءة تجعل منافسيهم الأسيويين والأفارقة لا يقدرون على مجاراتهم، لكن فى أحيان كثيرة يكون بينهم مثل هذه المرأة ليندا، تنتمى إلى قاع المجتمع ولا مهنة لها، وغالباً ما تكون قد احترفت الدعارة فى شبابها، ثم قفل سوقها بعد أن غادرت سن الشباب، أو تزوجت مبكراً قبل أن تعمل، ثم تطلقت وعاشت بلا عائل ولا مورد تلتقط رزقها كيفما اتفق من الأعمال الدنيا، وتعتبر الاتفاق الذى عقده معها ابن أخت سعد صفقة جيدة، تحصل خلالها على مبلغ كبير بلا جهد.. تقريباً!

***

سأل سعد الناس لماذا يتركون القمامة بهذا الشكل حول البيوت؟ كان قد لاحظ هذه الظاهرة غير المألوفة وأثارت تعجبه، قطع صغيرة، بضعة قراريط من الأراضى، تجاور بيوت العزبة أو تقع خلفها تتحول إلى مقالب للقمامة، عجز عن التفسير، هذه الأرض يعرف أنها جزء من الحقول، رآها فى صغره وهى تزرع، يتذكرها وهى مزدهرة بالمحاصيل والخضروات، يسأل فلا يجد رداً، يبتسمون وينظرون له نظرتهم إلى رجل خواجة ساذج لا يعلم شيئاً عن أعراف وتقاليد حياتهم، لكنه فى النهاية عرف بعد الكثير من المداراة والمراوغة أنهم يُبورون تلك القطع عمداً ويتركونها بلا زراعة ولا رى لسنوات، تتحول خلالها إلى

مقالب قمامة أو مخازن مفتوحة للمعدات والسيارات وأكوام الغلال وأجولة الأسمدة حتى تحين اللحظة المناسبة، لحظة خروجها من زمام الأراضى الزراعية، لحظة اليأس من عودة الخصوبة إليها وإمكان زراعتها بعد قطع قنوات الرى عنها وجفافها واستحالة وصول المياه إليها مجدداً، لحظة موت الأرض وتحولها غصباً عن عين الدولة إلى أرض مبان تُباع بالمتر بعشرات أضعاف سعرها!!

وجم سعد وهو يسمع تلك التفاصيل، وهى تُقال بفخر ومباهاة من أقاربه ومعارفه فى العزبة، وشعر أن مصر تفقد روحها تدريجياً، وأن وعى الناس بالمنفعة العامة يتقلص إلى حد الخطر، أدرك أن الكلام عن قيمة الأرض الزراعية وخطورة ضياعها وأهمية وجودها للأجيال القادمة سيعد ضرباً من الجنون، بالتأكيد سوف يتهمونه بالعبط لو فتح معهم هذا الموضوع! كل رجل منهم ينظر إلى الشجرة التى يقف تحت ظلها ولا يرى الغابة وهى تحترق! لا يبدو أن أحداً منهم يفهم أن الحريق سيصل حتماً إلى شجرته ويحرقها.. لمح فكرة الانتصار على الدولة وخداعها وإرغامها على الاعتراف بما يريدون وهى تُطل من كلامهم وتلونه بالفرح.

استغرب سعد أن العداء بين الناس والحكومة زاد فى هذا الزمن، حتى بلغ هذا الحد! هذا العداء كالمرض المزمن الذى تعانى منه مصر منذ قديم، منذ زمن المماليك الذين كانوا غرباء من شتى بقاع الأرض، يُجلبون إلى مصر وهم صبية، يرزحون تحت ذل الرق يباعون ويشترون من أمراء وقادة المماليك، ثم يتدرجون فى المناصب العسكرية حتى يصبحوا هم أنفسهم أمراء

وسلاطين بعد ذلك، يحكمون البلد الذى كان السبب فى عبوديتهم، لابد أنهم كانوا يعانون مختلف العقد والأمراض النفسية وهم يُديرون شئون الدولة، غرباء ليس لهم أقارب ولا إخوة وأخوات، وينتمى أباءهم وأجدادهم إلى أعراق وأجناس بعيدة لا تمت بصلة للشعب الذى يحكمونه، لا يمكن لإنسان أن يمر بهذه التجربة البشعة فى طفولته ويخرج منها سليماً، يُخطف من أهله ووطنه ويرحل قسراً إلى بلد غريب ليصبح جندياً فى جيش ذلك البلد، ويُجبر على اعتناق ديانته وتعلم لغته وتقاليده، لذلك لم يكن غريباً أن يصبح الظلم طابعهم والقسوة سلوكهم والنظر إلى مصلحتهم الشخصية ومصلحة طبقتهم مقدمة على مصالح البلد، أما الشعب الذى استكان لظلمهم وقسوتهم وخضع لقوتهم العسكرية فكان بعيداً عن اهتمامهم إلا فيما ندر! كان على كل رجل من أبناء الشعب أن يدبر أموره ويسعى على شئون حياته بعيداً عن الدولة التى لا تقدم له شيئاً، ولا تتعامل معه إلا لتأخذ، تجبى الضرائب والمكوس من قوته وقوت أولاده لتنفق على جيش طائل نهم لا يشبع، ليس له عمل سوى الخمول والتنعم وجمع المال، بجميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة.

لكن ما يدعو للدهشة أن الرجل المملوك بعد أن ينال حريته ويمتلك المال والسلطة، لا يفكر أبداً فى ترك مصر والعودة إلى وطنه الأصلى، لم يحدث أن رجع واحد منهم، بل كان النفى من أقسى العقوبات التى تنزل بأحدهم، حتى لو كان إلى غزة التى تعد أقرب مدن الشام إلى حدود مصر، الكثيرون منهم بعد بلوغهم مرتبة الإمارة كانوا يرسلون إلى أهلهم ليحضروا من

بلادهم البعيدة إلى مصر للعيش بها.. وكانوا يأتون، بعضهم فعل ذلك بعد جلوسه على عرش السلطنة.

مازال الناس منذ أيامهم لا يثقون فى الحكومة ولا يشعرون بالاطمئنان تجاهها، هناك دائما حالة من الشد والجذب بينهم وبين حكومة الدولة، فكر سعد أن هذه الحالة إحدى أهم المشاكل فى مصر إن لم تكن أهمها على الإطلاق، وإنها سبب لكل مظاهر الهبوط والتأخر التى يراها تزداد وتتفحل كلما جاء، لكن حكم المماليك انتهى منذ زمن بعيد!! فما الذى يجعل أثره يمتد إلى الآن؟! لا يفكر أحد فى فرنسا حيث يعيش أن الحكومة قد تضر بمصالحه أو بمصالح البلد، أو أنها تعمل لغير صالحه كمواطن.. لا يمكن للحكومة أن تكون صاحبة غرض، هذه الثقة تجعل الإنسان هناك يمارس حياته باطمئنان ويؤدى عمله بتفان، فلا يغش ولا يُخادع، ولا يناور القوانين ويلتف عليها لمنفعته الشخصية، من يفعل ذلك يُعد خارجاً على القانون ويُعاقب.

لا يستطيع سعد أن ينسى القصر المهيب الذى عمل ضمن طاقم مقاولات على تجديده فى إحدى ضواحى باريس، أخبره المقاول الفرنسى فيما بينهما وهو يبتسم أن القصر ملك لأحد كبار السياسيين المصريين، اشتراه منذ بضعة شهور، ثم أضاف معلقاً بما يشبه الزهو.

- لو أن أحد الوزراء الفرنسيين اشترى قصراً كهذا فى أى مكان فى العالم، فإن مصيره سيكون السجن لا محالة.

قال سعد مازحاً وهو مازال تحت تأثير الدهشة.

- لعل مصر قد أصبحت أغنى من فرنسا الآن، فمنذ زمن لم أذهب إليها.

قال الفرنسى جاداً.

- كيف تتركون هؤلاء اللصوص يحكمون بلدكم؟

- .....

وجم سعد وأراد أن يقول إن الأمر بيد الله، وأن الناس فى مصر لا حول لهم ولا قوة أمام جبروت السلطة الحاكمة، لكنه لم يستطع أن يجد لها معنى بالفرنسية يفهمه الرجل، فسكت.

12

على أحد أطراف العزبة البعيدة يقع مقهى اعتاد الشبان، خاصة من المتعلمين غير المتزوجين السهر فيه، يدخنون الشيشة ويشربون الشاى ويتفرجون على التليفزيون المعلق على الحائط بواسطة حامل حديدى له قاعدة عريضة يستقر فوقها التليفزيون، وتحتها يوجد درج مفتوح يقبع بداخله جهاز الريسيفر الذى يتصل بالأقمار الصناعية، وينقل بث القنوات التليفزيونية الأوروبية، كان استقدام صاحب المقهى لهذا الجهاز حدثاً مروعاً، أثار ذهول شبان العزبة الذين لم يتصور واحد منهم أن التليفزيون من الممكن أن يعرض مشاهد عارية لنساء جميلات بهذا الشكل الذى جعلهم يتجمعون كل ليلة فى المقهى، وينفقون من حصيلة عملهم القليلة على المشاريب والدخان وهم مسمرون على كراسيهم.

بعد سهرة حافلة تمتد عادة إلى ما بعد منتصف الليل، يخرج الشبان من المقهى فى مجموعات صغيرة وقد التهبت عقولهم بنساء أوروبا وأجسادهن الفاتنة، وركبهم الهم وامتلأت قلوبهم حسرة لفراغ أيامهم وغيام المستقبل أمامهم، تذكر معظمهم أقاربهم الذين يعيشون هناك فيما وراء البحر وحسدوهم.

زفر أحدهم بغيظ وقال.

- هل يمكن أن نخرج من هذه البلد فى يوم من الأيام، ونعيش حياة كريمة مثل خلق الله؟!

- أمنية حياتى أن أسافر لأعيش فى بلد آخر.

- بلدنا زمان كانت أحسن بلاد العالم وخيرها كثير، حتى إن الخوجات كانوا يأتون من أوروبا للعيش فيها.. تصوروا، الآن على حظنا انقلبت الأحوال، وأصبحنا نتمنى السفر لبلادهم من أجل العمل عندهم ولا نستطيع.

- نعم كانوا يهاجرون إلى بلدنا من إيطاليا واليونان ودول أخرى ليعملوا جرسونات وبقالين وعمال فى ورش إصلاح السيارات والحدادة والنجارة...!

قاطعه آخر قائلاً.

- وفى الزراعة أيضاً، كانوا يتاجرون فى القطن والمحاصيل، ويمتلكون الوكالات، ومنهم من كان يشترى أراضى ويزرعها، سمعت أن معظم أرض عزبتنا كانت ملكاً لعدد من الخوجات.

- أنا أيضاً سمعت بهذا.

- ليتنا عشنا فى ذلك الزمن، زمن الأيام الجميلة كما يقولون فى التليفزيون والصحافة!!

- زمن الدنيا الواسعة والخير الذى كان يكفى أهل مصر كلهم ومن يفد عليهم، ظلت مصر على مدى آلاف السنين براح تسع أهلها جميعاً وتبقى بها مساحة تكفى الغرباء والمهاجرين وتفيض، لم تضيّق وتختنق بالزحام، ويشح خيرها إلا فى أيامنا وزمننا الصعب هذا، لسوء حظنا وبختنا النحس.

- نعم.. يبدو أننا ولدنا بعيب خلقى اسمه النحس.

ظلوا يتحدثون وهم يمشون على جانب الطريق الأسفلتى الموازى للترعة، ومصابيح أعمدة الكهرباء تلقى بنهايات ضوئها على سطح الماء، بينما سيارات النقل ونصف النقل تمر بجانبهم مسرعة وتغمر الطريق بضوء كشافاتها القوية فى سيل لا يتوقف

برغم تأخر الليل، بعد مشوار طويل يصلون إلى الساقية القديمة حيث تبدأ بيوت العزبة فى الظهور بعدها مباشرة.

***

وقف سعد مع زوجته الفرنسية المغربية الأصل عائشة، ليلتقط بعض الصور عند نافورة تريفى فى قلب روما، نظر مبتسماً إلى الخيول الرخامية البديعة وهى تكاد تقفز من أماكنها، والماء ينساب تحت أقدامها، والرجال وهم يقفون بجانبها بعضلاتهم البارزة المنحوتة بدقة متناهية، فى المرات القليلة التى زار فيها روما حرص دائماً على زيارة تلك النافورة والتمتع بالفرجة على تماثيلها، يحب موقعها "فونتانا دى تريفى" المطل على ميدان واسع ممتلئ دوماً بالسائحين أكثر من أى مكان آخر فى العاصمة الإيطالية، فى عدد من أفلام السينما المصرية فى فترة السبعينيات التى دارت بعض أحداثها فى أوروبا، ظهر هذا الميدان ونافورته فى مشاهد عديدة، مازال سعد يتذكر تلك المشاهد التى كان لها أثر كبير فى نفسه وقتها، تمنى أيامها أن يسافر ويزور هذا المكان ويراه على الطبيعة، ويقف على نفس هذا الرصيف الواسع المواجه للنافورة الذى يقف عليه الآن.

مال على عائشة التى وُلدت فى فرنسا، وتتكلم العربية بصعوبة لكنها تفهمها جيداً، وأخبرها بما دار فى نفسه وهو يشير إلى النافورة، فضحكت وقالت له، إنها لا تعرف شيئاً عن هذه الأفلام المصرية القديمة، ثم أضافت تسأله.

- هذه الأفلام، هل كانت تحكى قصص المهاجرين إلى أوروبا مثلك ومثل أبى؟

- لا لم تكن كذلك، فى معظمها كان أبطال الفيلم يأتون إلى أوروبا لأسباب مختلفة ليست الهجرة من ضمنها، فحتى منتصف السبعينيات لم يكن الشبان المصريون قد بدأوا هذا الطريق بعد، بل إن الكثيرين خاصة طلبة الجامعة كانوا يأتون لقضاء فترة الإجازة الصيفية، يقضون ثلاثة أشهر يتنقلون بين الدول والمدن الأوروبية يعملون خلالها فى المهن البسيطة ويطاردون الفتيات، ثم يعودون فى نهايتها بالذكريات وببعض المال والملابس دون أن يفكر واحد منهم فى البقاء، فى هذا الزمن لم تكن مصر قد تحولت إلى دولة طاردة لسكانها كما هو الحال الآن.

- لكنك أتيت فى نفس هذا الزمن، أليس كذلك؟

- لا.. أتيت بعد ذلك، فى نهاية السبعينيات.

- كنت أنا طفلة صغيرة فى ذلك الوقت.

ضحك سعد وهو يمسك زوجته من كتفها ويداعبها.

- طفلة صغيرة جميلة.

وأكمل حديثة وهو مازال يضحك، ويمسح على شعره الفضى.

- كنت ضمن الفوج الأول الذى جاء ليستقر ويعيش هنا، منذ أكثر من ثلاثين سنة.

ثم نظر إليها بأسى وأكمل وقد استعاد جديته.

- فى الحقيقة لم أخرج مضطراً ولا مطروداً، كما هو حال من يسافرون الآن، أردت فقط أن أخوض تجربة جديدة وأجرب الحياة فى عالم مختلف، كان وقتها أفضل قليلاً من عالمنا، لم تكن الهوة قد اتسعت من ناحية الأحوال المعيشية على الأقل، إلى هذا الحد المخيف بين بلادنا وبين دول أوروبا.

- كم أشفق على هؤلاء الشبان الذين يرمون بأنفسهم فى البحر ويتعرضون للموت فى سبيل العبور إلى القارة الأوروبية!

- نعم، إنهم مساكين بالفعل.. يعيشون فى ظروف صعبة، إن جيلنا كان أسعد حظاً بكثير، عندما كنت أعيش فى مصر لم تكن الزيادة السكانية قد بلغت هذا الحد المرعب، ولم يكن الزحام قاسياً كما هو الآن، فى بداية القرن العشرين كان تعداد الشعب المصرى ثمانية ملايين، ثم تضاعف هذا العدد عشر مرات خلال المائة عام، ربما نكون الشعب الوحيد الذى حقق هذه المعادلة القياسية، دخلنا القرن الواحد والعشرين ونحن نزيد على الثمانين مليوناً، ضاقت الأرض على الناس، وزادت ضراوة التنافس بينهم حتى ظهرت العدوانية وشراسة الطباع لأول مرة على سلوكهم، وسادت أخلاقيات الزحام فى أسوأ صورها، وزاد فى صعوبة الأمر سوء الإدارة السياسية وعدم كفاءتها فى التعامل مع هذه المشكلة، الدولة تترك هؤلاء الشبان لمصيرهم ولا تقدم لهم شيئاً وتتجاهل مشكلتهم وتتعامل معها باستهتار، ولا تفعل ما يجب أن تفعله أى دولة محترمة لاستيعاب طاقتهم وتحويلها إلى طاقة منتجة، كما يحدث فى الدول الأسيوية، إنهم يخرجون إلى الحياة فلا يجدون إلا الخواء والركود والمستقبل المظلم، فى الأيام الأخيرة أعتقد أنهم أصبحوا لا يجدون الحياة نفسها، لذلك يخاطرون بحياتهم ويقدمون على الموت غرقاً، فالحياة ليس لديها ما تقدمه لهم، لكننى متأكد أن هذا الوضع لن يستمر، سوف يأتى اليوم الذى ينفجر فيه هذا الجيل من الشبان ويثور على الأوضاع السيئة التى يعيشها، هذه الطاقة الشابة لا

يمكن كبتها ولا تجاهلها بهذا الشكل الذى يحدث فى مصر الآن، سوف ينفجرون، وساعتها.. ربنا يُستر؟!

- هل تعتقد هذا؟ يُقال إن الشعوب العربية تعودت على الاستبداد ولن تتحرك لتغييره، وإنهم عادة ما ينتظرون القدر ليحل لهم مشاكلهم؟!

- أنت الآن يا عزيزتى تفكرين بالعقل الأوروبى الذى يروج لهذه الأفكار.

- هذا ما يقوله الواقع والتاريخ، أليس كذلك؟ إنه ليس رأيى.

- أتمنى أن يتغير هذا الواقع قريباً، لكننى أخشى التغيير الكارثى الذى يجلب الفوضى والخراب، ثورة الفقراء والمحرومين.

- هذا مخيف.

- نعم بالتأكيد.

نظر سعد إلى ساعته، ثم قال لزوجته وهو يلقى نظرة أخيرة على النافورة، هيا بنا نكمل جولتنا قبل أن يسرقنا الوقت فنتأخر على موعدنا مع جمال وكلوديا.

فى المساء كان جمال على موعد لحضور احتفال تنظمه الجالية المصرية، وباعتباره أحد الأعضاء الناشطين فقد تبرع بتحمل تكلفة الأطعمة والمشروبات التى ستقدم للضيوف والمدعوين، وبالطبع دعا سعد وزوجته لحضور الأمسية فوافقا مرحبين، بعد انتهاء الجزء الأول الذى تضمن كلمات الترحيب والدعوة إلى الدعم المالى والمعنوى لأنشطة الجالية التى يتزايد عدد أفرادها باستمرار ومساعدتها على القيام بواجباتها، افتتح البوفيه وبدأت الأغانى المصرية تنطلق من السماعات وتسرى فى جو الحفل لتكمل خلفية المشهد، ووقف منظموا الحفل والضيوف

والمدعوون فى جماعات صغيرة، وهم يمسكون بأطباق المأكولات الخفيفة والحلوى، ويتبادلون الحديث الذى تختلط فيه العربية بالإيطالية وسط جو يسوده المرح وترتفع فيه الضحكات، ودواليدا تغنى كلمة حلوة وكلمتين.. حلوة يا بلدى، التى أثارت بعض الشجن وذكريات الشباب لدى الرجال الأكبر سناً، فجأة انطلق من السماعات اللحن المميز لأغنية شادية "يا حبيبتى يا مصر"، صمت الجميع وصوت بداية المقدمة الموسيقية يخطف القلوب بضرباته السريعة المتلاحقة، ليتدفق اللحن بعدها فى عزوبة آسرة يشوبها شجن موجع، وإحساس جارف بالحنين، متمايلاً فى رقة تمايل مجرى النيل وهو يجرى فى أرض مصر.

رفع سعد رأسه منصتاً وقد داهمته موسيقى اللحن، وأخرجته من النقاش الذى كان يدور حول أوضاع الجاليات المصرية، كانوا يتكلمون تحديداً عن صعوبة التعاون مع الحكومة المصرية، وعجزهم عن تقديم أى مساعدة لمصر، فالحكومة المصرية دوناً عن بقية الحكومات لا تقدم على أى خطوة للاستفادة من خبرات أبنائها المهاجرين سواء العلمية أوالاقتصادية والتجارية، ولا تستفيد من صلاتهم مع المؤسسات والشركات وحتى الحكومات الأوروبية، بل إن المحاولات الفردية التى يقوم بها بعض المهاجرين ليساعد بلده تقابل بالتجاهل وربما بالازدراء!

استمع إلى بداية المقدمة الموسيقية، فى لحظة استعادها دفعة واحدة، منذ سنوات طويلة.. طويلة جداً لم يسمع هذه الأغنية، لكن هذا اللحن العبقرى الذى صنعه بليغ حمدى برهافة حس بالغة ينهض بغتة من النسيان حياً ومؤثراً فى نفسه إلى هذا الحد

الذى لم يعد معه يتمالك مشاعره، أحس باللحن يلمسه فى منطقة ما من الأعماق، تذكر الحقول الخضراء على جانبى الترعة، والبيوت الطينية المطلية بالأبيض والأزرق التى يضمها دفء الجيرة، وشم رائحة الأرض والزرع، ورأى أهل بلده الطيبين، ووجوه الأعمام والأخوال السمراء غير الحليقة التى غزاها الشعر الأبيض، وقطرات العرق تلمع على جباههم وهم يمسكون بالفؤوس ويعملون فى الحقول، تحت شمس مصر الساطعة، جاشت مشاعره وامتلأت عينيه بالدموع، فوضع الطبق على المائدة المجاورة وهو منتبه بوجدانه إلى الموسيقى، حتى وصل إلى قمة انفعاله والمجموعة تبدأ بالغناء.

يا بلادى

يا أحلى البلاد يا بلادى

فداكى أنا والولاد

يا بلادى

تملكه الحنين، فلم يشعر بنفسه إلا وهو ينخرط فى البكاء وقد أثرت فيه جملة "فداكى أنا والولاد" بشكل خاص، وتداعت معانيها عليه وهزت نفسه بشدة، وضع جمال هو الآخر طبقة على المائدة، ووقف صامتا ودموعه تنساب فى هدوء، نظرت كلوديا مشفقة والدموع تلمع فى عينيها إلى زوجها وإلى سعد الذى تعرفه منذ زمن الشباب مرحاً ساخراً وصديقاً وفياً لأسرتها، تعرف إلى أى مدى يحبان بلدهما، احتضنت عائشة التى فوجئت بالموقف رأس زوجها وظلت تربت على كتفه بحنان قائلة، مصر غالية علينا كلنا.

كان جميع المصريين الحاضرين قد تأثروا بالأغنية هم أيضاً، وانتقلت إليهم عدوى البكاء وسط دهشة معارفهم وأصدقائهم الإيطاليين الذين كانت الموسيقى والغناء قد نقلت إليهم مشاعر شفيفة من الشجن، لكنهم استغربوا أن يكون لها هذا التأثير الجارف على أصدقائهم الشرقيين، فأخذوا ينظرون لما يجرى حولهم فى ارتباك لم يعرفوا معه كيف يتصرفون، أصابهم الوجوم فتسمروا فى أماكنهم، والتزموا الصمت احتراماً لمشاعر أصدقائهم الذين لم تغير السنوات التى عاشوها فى أوروبا من طابعهم العاطفى.

***

حرص جلال بشكل غريزى على بقاء الإطار المطاطى ثابتاً حول صدره حرصه على حياته، فرد ذراعيه على آخرهما، وجعل منهما مجدافين يتحركان بعضلات الكتفين فقط، أما كوعاه فلم يثنيهما خوفاً من انزلاق الإطار عن جسده، بعد عدة دقائق من التخبط والحركة العشوائية بدأ فى دفع الماء بقدميه بشكل منتظم بطريقة كان قد شاهدها فى التليفزيون وعلقت بذهنه، حافظ بكل طاقته على تفادى الاصطدام بالموج، ولم يلبث أن استوعب – كمن يتعلم ركوب الدراجة - حركة سطح البحر فى منطقة اللاوعى من عقله، وأخذ يتعامل معها وهو يتقدم ببطء شديد نحو الشاطئ البعيد.. جداً، استمر فرج بالقرب منه فترة من الزمن، وبدا أنه مسيطر على وضعه ويسبح بقوة دون صياح أو زعيق كما يفعل معظم رفقائهم، الذين كانوا يتخبطون ويضربون الماء بأطرافهم الأربعة خبط عشواء، والموج يصعد بهم ويهبط

قاذفاً بهم فى اتجاهات شتى ليفقدهم صوابهم، وهم يحاولون بجنون التحكم فى العوامات والسباحة بها، ولم تلبث شدة الرياح على سطح البحر وسرعة التيارات وقوة الموج أن بثت فى نفوسهم الهلع، فانهارت أعصابهم وأخذوا يستغيثون ويصرخون.
بعد فترة بدت لجلال طويلة طول عمر بأكمله، وجد نفسه بمفرده فى الماء، وقد ابتعد عن منطقة الإنزال بمسافة كبيرة، ومع ذلك مازالت أنوار الشاطئ تبدو له بعيدة، انقطع صياح زملائه ولم يعد يسمع أصواتهم، لكنه ظل يشعر بوجود بعض الرفاق على مبعدة حوله، ابتعد فرج عنه ولم يعد يسبح بجانبه، لا يستطيع أن يعرف مصيره، هل أصبح خلفه ومازال يسبح باتجاه الشاطئ؟ أم خارت قواه وغرق؟ لم يستطع فى هذه اللحظة أن يفكر أو يشغل عقله إلا فى نفسه والنجاة بحياته التى مازالت مهددة، تجاهل الخاطر الذى ومض فى عقله وهو يرى نفسه وحيداً، على عكس ما كان يظن طوال الأسابيع الماضية التى جمعته بزملاء الرحلة، كثيراً ما تكلموا عن هذه الساعة التى سيقضونها فى السباحة نحو الشاطئ، تصوروا أنهم سيسبحون معاً كمجموعة واحدة حتى يصلوا إلى بر الأمان، قد يغرق عدد منهم – ظل هذا الاحتمال قائماً – أثناء الطريق، لكنهم فى النهاية سيصلون معاً، ربما يسبق البعض ويصلون قبل الآخرين، لكنهم سيجلسون على الشاطئ الإيطالى ينتظرون بقية الرفاق وهم يتوافدون تباعاً ويساعدونهم على الخروج من الماء.. طرد جلال من عقله فكرة أن هؤلاء الزملاء، أو معظمهم على الأقل، قد غرقوا وأنهم الآن موتى.. بمجرد أن خطرت على باله، لم يسمح لهذا الهاجس أن يسيطر على تفكيره وخطر الغرق واللحاق بهم

لازال يحوم حوله، حافظ على تركيزه وانتظام حركته وهو يدفع بجسده نحو الأنوار الخافتة التى مازالت بعيدة.
شعر بعد مرور ساعة أنه قطع نصف المسافة، توقف ليريح جسده المنهك ويسترخى للحظات قبل أن يعاود السباحة، الظلام دامس والصمت حوله شامل إلا من هدير البحر المخيف، شعوره بأن القاع بعيد عن قدميه بعداً سحيقاً يبث فيه الرعب، تنتابه الرغبة فى النوم، رأسه يثقل وجسده يرتخى، يغمض عينيه للحظة ثم يعاود السباحة، لم تعد إيطاليا ولا أوروبا بأسرها تعنيه فى تلك اللحظة، لا يريد إلا النجاة، أن يقف بقدميه على الأرض.. أى أرض، حتى لو كانت أرض السجن، تمنى أن يمر أحد قوارب خفر السواحل بالقرب منه ليلتقطه من الماء وينقذه من هذا المأزق، وليعيدوه بعد ذلك إلى مصر.. لا يهم، آآه كم أنت قاسية علينا يا مصر، ما الذى فعلناه حتى نرمى أنفسنا فى البحر هرباً منك ومن ظلمك لنا؟! يدفع نفسه بكل ما تبقى من قوته ليسبح وهو يشعر بالإنهاك وأنه على شفا الانهيار، يارب.. يااارب، دفعة ماء هينة، ينتبه.. ويحس على الفور باتجاهها المغاير، يستسلم لها ويرخى أعصابة المشدودة، وهو يشعر أخيراً بأن التيار الذى عانده طويلاً حتى استنفد قواه، قد غير اتجاهه وبدأ يدفع به ناحية البر، يااه.. الحمد لله، يتشجع ويستعيد قواه منتعشاً بالأمل ويدفع الماء بقدميه ليساعد التيار.
بأسرع مما توقع وجد جلال نفسه قد وصل عند الأرض، لكنه لم يجد شاطئاً يرتمى عليه كما توقع، دخل منطقة تنتشر فيها كتل صخرية ضخمة، تنتهى بجدار هائل من الصخور، رءوس الصخور الحادة تبرز من الماء حوله وهو ما عرضه لخطر آخر

لم يخطر على باله، الموج يندفع بقوة ليرتطم بكتل الصخور، ثم يرتد بعنف عائداً للبحر، إنه فى منطقة خطرة لا يجرؤ إنسان على الاقتراب منها فى الظروف الطبيعية خوفاً من الصخور الصلدة القادرة على تكسير الجسد وتمزيقه، أمسك جلال بإحدى الكتل الصخرية وبدأ يتنقل ببطء بحثاً عن مكان يصلح للتسلق، كان الإطار يعوق حركته، لكنه برغم أنه أصبح تقريباً على البر لم يفكر فى التخلص منه.

بعد أن دار مسافة كبيرة وجد فرجة بين الصخور تصلح للصعود، خلع الإطار وتسلق الصخور الزلقة بحذر، ولم يكد يصل إلى الأرض المستوية ويتنفس الصعداء حتى بُوغت بصوت صفارات الإنذار تدوى وتمزق سكون الليل وأضواء الكشافات تكشف سطح البحر.

انكمش فى مكانه وهو يرى لنشات خفر السواحل تدور أمامه فى البحر، تبين له أن الكثيرين من زملاء رحلته كانوا يسبحون خلفه باتجاه الشاطئ، أسعده أنه لم يكن وحيداً فى البحر كما كان يتخيل، وأن عدداً كبيراً من رفاقه قد تمكن من النجاة حتى ولو كان مصيرهم السجن، أيقن الآن بعد هذه التجربة أن الحياة مهما كانت أفضل من الموت، ظل لعدة دقائق يتابع مشهد انتشال رفاقه من الماء والقبض عليهم، تذكر فرج وشعر بالأسى له، هل قُبض عليه للمرة الثانية؟ هذه المرة وهو على بعد خطوات من الشاطئ؟!

برغم الإرهاق، وبرودة الجو القارصة، والشعور بالدوار بعد الخروج من البحر، الذى قضى فيه أكثر من ساعتين، قام متسللاً من مكانه متستراً بالظلام، وأسرع مبتعداً عن منطقة الخطر

خوفاً من القبض عليه، سار فى خط مستقيم إلى الداخل مبتعداً عن البحر، لا ينحرف يميناً أو يساراً، لاحظ على الفور أنه يمشى على أرض عشبية، وأن هناك الكثير من الشجيرات تنتشر فى الطريق الذى يسير فيه، حتى إنه اصطدم ببعضها، أدرك كالحالم أنه الآن فى أوروبا، وأنه يمشى على أرضها بالفعل، ابتسم برغم كل ما يعانيه من برد وتعب وشعور بالمطاردة.

بعد مسافة قصيرة من المشى السريع وصل إلى منطقة غابات، دخل بين الأشجار العملاقة متوغلاً إلى منطقة العمق، شعر فى هذا المكان بين الأشجار أنه وصل أخيراً إلى بر الأمان، خلع الأفرول الذى حمى جسده وملابسه من البلل إلى حد ما، ثم بسطه على الأرض فوق طبقات من أوراق الشجر الجافة والأغصان اليابسة ونام عليه.

استيقظ جلال بعد ساعات قليلة قضاها فى كوابيس متلاحقة، بمجرد دخوله فى النوم عاد يسبح فى البحر، هاجمه البوليس وقبض عليه.. أوشك على الغرق مرات، وظل يشهق حتى وصل إلى الرمق الأخير، ابتلعه الموج ورأى الكثير من معارفه الموتى جالسين فى قاع البحر، حاصره رجال معهم كلاب شرسة وهو مختبئ بين الصخور، راوغهم وهرب راكضاً وهم يطاردونه، أفاق من نومه فزعاً وهو يجرى هارباً من مطارديه ليجد الغيوم والسحب الثقيلة السوداء التى لا تنفذ منها أشعة الشمس تغطى وجه السماء، اعتدل من رقدته وهو يرتجف من شدة البرد، وقد أصابه زكام ورشح ألهبا حلقه وأنفه، ظل لعدة دقائق جالساً يفرك كفيه، وأحداث الليلة السابقة تتزاحم فى عقله، ورأسه يعانى الدوار كأنه مازال فى البحر، قام واقفاً فشعر بألم

فى عظامه وعضلات جسمه، فى هذه اللحظة كان أحوج ما يكون إلى وجبة طعام ساخنة وفراش دافئ، لكن لم يكن أمامه سوى أن يتحامل على نفسه ويمشى، لابد له أن يصل إلى محطة قطار ليركب منها إلى روما!

الغابة أكبر بكثير مما تصور، الأرض وعرة وليست مستوية كما يعهدها فى مصر، ترتفع وتنخفض وتمتلئ بالمنحدرات الشاقة التى تعوق السير، والأشجار تنتشر بكثافة وتنمو فى كل مكان، شعر جلال أنه فى متاهة لا نهاية لها، حاول بقدر المستطاع أن يمشى فى خط مستقيم جاعلاً البحر خلفه، لابد لهذه الغابة من آخر فى نهاية الأمر!

قرب الظهيرة انفتح الأفق أمامه، مروج خضراء تمتد على مرمى البصر فى منخفضات ومرتفعات، يكاد السحاب الداكن يلامسها من شدة اقترابه من سطح الأرض، نظر إلى العشب الذى يبدو كسجادة لا نهائية تتوزع فيها درجات اللون الأخضر، لا توجد هنا صحراء! ولا شمس أيضاً! والمشهد أمامه برغم الخضرة والأشجار والشجيرات البرية المنتشرة بكثافة قاتم ومقبض للقلب، أدخل الكآبة على نفسه، السحب فى مصر بيضاء ناصعة تكاد تضيء السماء، فى هذه اللحظة فهم سبب رجوع الكثيرين ممن أتوا إلى هنا وقضوا بضع سنين، كان يتعجب من أمرهم، كيف يرجعون ويتركون المال والنظافة والحياة الرغدة المريحة؟!

جد فى السير وهو يشعر بالإعياء من شدة الجوع والزكام، يريد أن يصل إلى مدينة أو قرية عله يجد طعاماً، تحسس العشرين دولاراً، مد يده داخل جيبه وهو يمشى ومزق الخياطة، وانتزع

ورقتى النقد وفض لفتهما البلاستيكية، نظر فيهما، وفى صفحة الكراسة المكتوب عليها عنوان خاله ورقم تليفونه، وتأكد أن الأوراق سليمة ولم يصبها البلل، ظهر على البعد شارع أسفلتى، فأسرع حتى وصل إليه، وظل يسير بمحازاته، الخلاء واسع هنا، الطريق خال بل مقطوع تقريباً، لا تمر عليه سيارة إلا كل فترة كبيرة، قطع مشواراً طويلاً، إلى أن ظهرت فى نهاية الأفق بيوت أول مدينة إيطالية سيدخلها فى حياته.

صدر للكاتب

1- الملك ينزل المدينة (مجموعة قصصية)، دار ميريت- 2006

2- خيانة الجسد (مجموعة قصصية)، طبعة خاصة، 2008

3- مصير بيكاسو (رواية)، الحضارة للنشر، 2009

4- مولانا (رواية)، الحضارة للنشر، 2010

5- ليلة التحرير (رواية)، الحضارة للنشر، 2011.

(تحت الطبع)

شذا عطرها (مجموعة قصصية)، الحضارة للنشر، 2012.